

قصص من الأغاني

واضعه

ابراهيم جلال

الناشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

الألف كتاب (٣٠١)

قصص من الأغاني

بإشراف
إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الإقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية
الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٣٠١)

قصص من الأغاني

واضعه
ابراهيم جلال

الناشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مقدمة

هذه قصص مختارة من كتاب الأغانى للإمام أبى الفرج الأصفهانى تحدثنا عن فريق من المتيمين الذين أحبوا فعفوا فكتموا الحب فماتوا بعد أن نظموا الرقيق من الشعر الوجدانى فيمن عشقوا من الغوانى ، فكانت مآسى مفجعة وأحداثا أليمة لأولئك البائسين الذين حرموا نعمة اللقاء وغلبهم الدهر على أنفسهم، فقرع أجسادهم ورمى بأشلائهم على جسر الهوى شهداء تقرحت بمسيل الدمع أجفانهم، وتفجرت عن جمرات النوى صدورهم .

وكانت علة ذلك البلاء غلو أعراب البادية فى صيانة أعراضهم والذود عن أحسابهم، فأسرفوا فى كراهية تزويج فتياتهم ممن أحببن من البؤساء المتيمين بعد أن ذاعت بين العشائر أحاديث غرامهم وفاضت أحزان مآسيهم وتناقل الناس رقيق مانظموه ن الغزل والنسيب فيهن، وألحوا فى نفى أولئك المساكين من جوارهم ، وحرموهم رؤية فتياتهم وزعموا أن ذلك الغلو فى قطيعتهم ذود عن أنفسهم وسمو بآداب العفة المتأصلة فيهم، ثم لجئوا آخر الأمر إلى أبواب الحكام يلتمسون العون عليهم فأباحوهم دماءهم، فساءت بذلك عقباهم واستحكمت حسرة الحرمان من قلوبهم .

وغالب ما وقع من فجائع الحب كان فى قبيلة بنى عذرة وهى الحى الذى تفرد عشاقه بعفة الهوى وسمو التفجع فيه، وبراءته من ذلك الهوى العصرى الذى استفاضت سيره وتعددت قصصه ونعته كتابه بالهوى العذرى افتياتا وعدوانا .

وكانت منازل بنى عذرة فى وادى القرى وهو الذى جمعت فيه آثار قوم ثمود وعاد ، إذ يرتحل المسافر من ظاهر المدينة المنورة شمالا فيخترق المراحل العديدة بين منازل القبائل القريبة الضاربة فى طريقه حتى يبلغ منازل بنى عذرة ، كما تمتد دروب أخرى من وادى القرى إلى منازل بنى عامر التى عرفت بالغزليين أيضاً .

وعلى المسافر أن يقضى ثلاث ليال بعد بلوغ تلك المنازل ليدخل مدينة (تيماء) التى فيها قبيلة طيء .

وتيماء مدينة تقوم على ضفة نهر ومن حولها سور وفيها كثير من الفاكهة ، ويمتد الطريق منها إلى حوران أولى مدائن الشام .

(معجم ما استعجم)

وقد ألحقت بذيل قصص أولئك العذريين طائفة من الملح الغالية والنوادر المحببة هى نزهة النفس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلس

الراحة ومعدن السرور ، يتنقل بينها القارىء من فائدة إلى مثلها من جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة ، وفيها الكثير من قصص الخلفاء فى الإسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها لأنها منتحلة من غرر الأخبار ومنتقاة من عيونها ومنقولة عن أهل الخبرة بها . .

(١)

قصـــة

جميل و بثينة

كان بطل هذه القصة جميل بن عبد الله بن معمر العذرى الذى يمتد نسبه إلى قبيلة قضاعة .

وكان جميل شاعرا فصيحا جامعا للشعر والرواية ، فقد كان راوية لشعر هدبة بن خشرم كما كان الشاعر الغزلى كثير راوية لشعر جميل . وأحب جميـــل بثينة من بنى الأحب وهى فخذ من بنى عذرة وعرف بصدقه فى الصبابة والعشق ، فإن نُصيبا الشاعر وهو مولى عبد العزيز بن مروان كان معاصراً لجميل وشهد له بأنه إمام المحبين وأول ما أحب جميل بثينة أنه أقبل يوما بإبله حتى أوردها واديا يقال له : بغيض فاستراح به وأرسل إبله تصعد الوادى .

وكان أهل بثينة فى آخر الوادي فأقبلت بثينة مع جارة لها تردان الماء فمرتا على بعير لجميل قد برك فنفرته وكانت جارية صغيرة فسبها جميل فردت عليه نسبابها فاستطاب سبابها وقال أول شعر له فيها وهو :

وأول ماقاد المودة بيننا ... بوادى بغيض يا بثين سباب
وقلنا لها قولا فجاءت بمثله ... لكل كلام يابثين جواب

وحدث بعد ذلك أن خرج جميل فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويخرجن سافرات للرجال فى كل عيد

فوقف جميل ببثينة ومعها أختها أم الحسين ونساء من بنى الأحب فأعجبه منظرهن وعشق بثينة .

وقعد بينهن طويلا وكان معه فتيان من بنى الأحب أهل بثينة فأدركوا أن جميلا قد وقع فى حب بثينة فنقموا عليه

وسمعت بثينة أن جميلا قد كلف بها فأقسمت بالله لئن قدم عليها فى خلوة لتخرجن إليه ولا تتوارى منه فكان يأتى لزيارتها عند غفلات الرجال فيتحدث إليها مع أخواتها حتى نمى الخبر إلى أبيها وإخوتها وكانوا ذوى أنفة وغيرة فوقفوا له بالمرصاد فى جماعة عدتهم بضعة عشر رجلا وكان لجميل ناقة فارهة لا يجاريها بعير اسمها الصهباء .

فالتقى ببثينة يوما وأختها أم الحسين وجعل ينشدهما قوله :

لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقيا ... سليمى ولا أم الحسين لحين
فليت رجالا فيك قد نذروا دمى ... وهموا بقتلى يا بثين لقونى

فوثب عليه القوم ولكنه انطلق بناقته ففاتهم .

وحدث بعد ذلك أن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا فى بعض المواضع فأتى لوعدها وجاء أعرابى فنزل ضيفا على قومها وقال لهم : إنى رأيت ببطن هذا الوادى ثلاثة نفر متفرقين متوارين فى الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم فعرفوا أنه جميل وصاحبان له فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده .

ولبث جميل وحده طول ليله حتى أسفر له الصبح فانصرف كئيباً سيء الظن بها ورجع إلى أهله فجعل نساء الحى يلمنه ويقلن له : لقد حصلت منها على الباطل وقد كذبت عليك . فقال فيها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى ؟ إنى إذاً لسعيد
وهل ألقين فرداً بثينة مرة تجود لنا من ودها ونجود ؟
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفنيت عمرى بانتظارى وعدها وأبليت فيها الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها وقد قربت بصرى أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التى ترى لزرتك فاعذرنى فدتك جدود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد

وقامت أمة لبثينة بالسعاية عند أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلا عندها الليلة فأتياها مشتملين على سيفين فرأيا جميلا جالساً عندها ولكنه غير مخالط لها، يحدثها ويشكو إليها بثه ، ثم قال لها: يابثينة أرأيت حبي لك وشغفي بك ألا تجزيني ؟ قالت: بماذا أجزيك ؟ قال : بما يكون بين المحبين المتحابين ، فقالت : ياجميل أهذا تبغي ؟ والله لقد كنت عندى بعيداً منه . ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبدا.

فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه. ولو علمت أنك تجيبيني إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجره

الأبد ، فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها فانصرفا وتركاهما .

وحدث رجل من أصدقاء جميل وأترابه كان يألفه قال : قال لى جميل ذات يوم: هل تساعدنى على لقاء بثينة؟ فمضيت معه فكمن فى الوادى وبعث بى إلى راعى إبل بثينة بخاتمه فدفعت الخاتم إلى الراعى فمضى به إليها ثم عاد بموعد منها إليه ، فلما كان الليل جاءته فتحدثا طويلا حتى أصبحا ثم ودعها وركب ناقته ، فلما استوى فى غرزها وهى باركة قالت له : ادن منى ياجميل فقال يودعها :

إن المنازل هيجت أطرابى ... واستعجمت آياتهـــا بجوابى
قفرى تلوح بذى اللجين كأنها ... أنضاء رسم أو سطور كتاب
لمـا وقفت بها القلوص تبادرت ... منى الدموع لفـرقة الأحباب
وذكرت عصراً يابثينة شاقنى ... وذكرت أيامى وشرخ شبابى

وكان كُثير الشاعر صديقاً لجميل وراوية لشعره وكان يقول الشعر تغزلا فى عزة ، وكان كثير الثناء على جميل وعلى شعره ، فالتقى به يوما فسأله جميل أين كنت ؟ قال : كنت عند والد بثينة . فسأله أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور حبيبتى عزة ، فقال له جميل: أسألك بالله أن تعود إلى حى بثينة فتستجد لى موعداً منها ، فقال له كثير : لقد كنت لديهم من ساعة وأستحى أن أرجع إليهم ، فقال له جميل : لا بد من ذلك .

فقال له كثير: متى كان آخر عهدك بها؟ قال: كان ذلك فى أول الصيد

وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، فلما أبصرتنى لم تعرفنى فغطت وجهها ببعض ثيابها ، ولـكن جاريتها عرفتنى فـكشفت عن وجهها وتحدثنا حتى غابت الشمس وسألتها الموعد فقالت : إن أهلها جميعا بالحى ؛ ولم أجد أحداً فأرسله إليها إلا أنت .

فقال له كثير : ما رأيك فى أن آتى الحى فأحدثهم بأبيات من شعرى أذكر فيها تلك العلامة التى ذكرتها لى الآن لأننى لا أستطيع الخلوة ببثينة فأحدثها .

فسر جميل لتلك الحيلة وخرج كثير حتى أناخ بأبيات بثينة .

فقال له أبوها : ما ردك إلينا ؟

قال : ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك ، قال : هاتها فقال كثير : وكانت بثينة تسمعه :

فقلت لها ياعز أرسل صاحبى ... إليك رسولا والموكل مرسل
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً ... وأن تأمرينى بالذى فيه أفعل
وآخر عهدى منك يوم لقيتنى ... بأسفل وادى الدوم والثوب يغسل

فضربت بثينة جانب خدرها وقالت اخسأ اخسأ .

فقال أبوها : ماذا جرى يابثينة ؟

قالت : إن كلبا يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية .

ثم قالت للجارية اذهبي إلى الدومات فاحملي لنا بعض الحطب لنذبح لكثير شاة ونشويها له

فقال كثير : أنا أعجل من ذلك ، وانصرف إلى جميـــل فأخبره.

فقال جميل : الموعد الدومات . وقالت بثينة لأم الحسين وليلى ونجيا بنات خالتها وكانت تأنس بهن وتطمئن إلى مودتهن : إنى رأيت فى نشيد كثير أن جميلا معه .

وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدومات وجاءت بثينة ومن معها وجعلت تحدث جميلا طول ليلها حتى برق الصبح ، فلما انصرفن قال كثير: ما رأيت مجلسا قط أحسن من ذلك، فقد علم كل واحد منهما بما فى ضمير الآخر ، وما أدرى أيهما كان أكثر فهما من صاحبه .

ولما ضاق والد بثينة بهذه الحال زوج بثينة برجل من قبيلته، وجاء على وادى القرى الذى تنزله بنو عذرة حاكم اسمه دجاجة بن ربعى. فشكا أهل بثينة جميلا إلى الوالى فأرسل إليه ألا يلم بأبيات بثينة، وأهدر دمه لأهلها إن عاود زيارتها . فكف جميل عن الزيارة .

ولكن الدنيا ضاقت به فكان يصعد ليلا على كثبان تفصله عن أبيات بثينة ويتنسم الريح من ناحية حيها ويقول :

أيا ريـــح الشمال أما تريني أهيم وأنني بادى النحول

حيى لى نسمة من ريح بثن ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يابثينة حسب نفسى قليلك أو أقل من القليل

فإذا بدا وضح الصبح انصرف .

وكانت بثينة تقول لجوار من الحى عندها : ويحكن إنى لأسمع أنين جميل من بعض القيران ، فيقلن لها : هذا شىء يخيله لك الشيطان .

وزار جميل يوما حى بثينة فنزل قريباً من الماء يتربص أمة لها أو راعية . فمرت به أمة حبشية تحمل قربة وكانت تعرفه فسلمت عليه وجلست معه فجعل يحدثها ويسأل عن بثينة ويحدثها بخبره بعدها ، ثم أعطاها خاتمه لتدفعه إلى بثينة وتأخذ عليها موعداً له .

فانصرفت الجارية إلى الأبيات وكانت قد أبطأت على مواليها فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها فسألوها عما أبطأ بها فالتوت عليهم ولم تخبرهم وتعللت فضربوها ضرباً مبرحا فأعلمتهم بحالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه ، وفى تلك الأثناء مربهم فتيان من بنى عذرة فسمعا القصة كلها وعرفا الموضع الذى به جميل فأحبا أن يثبطا القوم عنه فقالا لهم : إنكم إن لقيتم جميلا وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم فى ذلك كل مكروه، فدعوا الأمة توصل الخاتم إلى بثينة حتى إذا ما زارها جميل بيتموهما جميعاً .

فقالوا : صدقتما إن هذا هو الرأى .

ودفعوا الخاتم إلى الأمة وأمروها بإيصاله إلى بثينة وحذروها من أن تخبر بثينة بأنهم علموا بالقصة، ولم تعلم بثينة بما جرى.

ومضى الفتيان إلى المكان الذى كان به جميل فأنذراه، فقال: والله ما أرهبهم وفى كنانتى ثلاثون سهما وبيدى سيفى.

فقالا له: إنك ستقيم عندنا فى بيوتنا حتى يهدأ الطلب ثم نبعث إليها فتزورك وتنصرف بعد ذلك سليماً.

ويحسن بك الآن أن تبعث إليها من ينذرها حتى لا تخرج للقائك وأتياه براعية لهما فحملت رسالته إلى بثينة فلم تخرج لزيارته ورصدها أهلها فلم تبرح مكانها فخرجوا يقتفون أثر جميل وكان قد فاتهم فعادوا.

وأراد أهل بثينة سفراً فائتمنوا عليها عجوزاً منهم تدعى أم منظور فجاءها جميل وقال لها: أرينى بثينة فقالت: لا والله لا أفعل لقد ائتمنونى عليها فقال: والله لأفعلن بك الأفاعيل وخرج من عندها وهو يقول:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظور
ولا استلابتها خرساً جبائرها
إلى من ساقط الأوراق مستور

وذاع خبر هذين البيتين فى الحى حتى سمع بهما أهل بثينة فأرادوا البطش بأم منظور فحلفت لهم بكل يمين فلم يصدقوها.

وجاء جميل ذات ليلة إلى أبيات بثينة فى ثياب راع فوجد عندها أضيافا فوقف بعيـداً عن أبياتها فسألته : من أنت ؟ فقال : مسكين فأطعمت ضيوفها وأطعمته وحده ، ثم جلست هى وجاريتها تصطليان من البرد واضطجع القوم للنوم ، فقال جميل :

هل البائس المقرور دان فمصطل — من النار أو معطى لحافاً فلابس

فقالت بثينة لجاريتها : صوت جميل والله ، اذهبي فانظرى فرجعت إليها . فقالت : هو والله جميل . فشهقت شهقة سمعها الرجال من أهلها فاقبلوا يجرون إليها ، وقالوا : مالك فطرحت بردا لها فى النار ، وقالت: احترق بردى فرجع القوم .

واشتكى زوجها إلى الوالى وإلى أهـل جميل وكانت منازلهم متجاورة وهم بيوتات متصلة .

فمشت مشيخة الحى إلى أبيه ، وكان يلقب بصباح وكان ذا مال وفضل وقدر فى أهله فشكوه إليه وناشدوه الله والرحم ، وسألوه كف ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به فى فتاتهم ، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ثم انصرفوا . فدعا به وقال له : يا بنى حتى متى أنت مصر على ضلالك لاتأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وأنت عنها بمعزل ، ثم تقوم من جنبه إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة ، وهى مضمرة لبعلها ماتضمره الحرة لمن ملكها فيكون

قولها لك تعليلا وغرورا فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة .

إن هـذا لذل وضيم . ما أعرف أخيب سهما ولا أضيع عمرا منك . فأنشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك فإنك تعلم أن ما قلته لك هو الحق ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولـكن هذا أمر قد فات وفى النساء عوض .

فقال له جميل : الرأى ما رأيت والقول كما قلت . فهل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه، أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت . ولـكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى ، وأنا ممتنع من طروق هذا الحى والإلمام بهم ولو مت كمدا ، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه .

وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر وسمعوه فى منصرفه يقول :

ألا من لقلب لا يمل فيذهل ... أفق فالتعزى عن بثينة أجمل
سلا كل ذى ود علمت مكانه ... وأنت بهـا حتى الممات موكل
فياقلب دع ذكرى بثينة إنهـا ... وإن كنت تهواها تضن وتبخل
وإن التى أحببت قد حيل دونها ... فـكن حازما ، والحازم المتحول

فنى اليأس مايسلى وفى الناس خـلة
وفى الأرض عمن لايواتيك معزل
على حين ولى الأمر عنا وأسمحت
عصا البين وانبت الرجاء المؤمل
فما هو إلا أن أهيم بذكرها ويحظى بجدواها سواى ويجذل
وآخر عهدى من بثينة نظرة على موقف كادت من البين تقتل
وإنى لأستبكى إذا ذكر الهوى إليك ، وإنى من هواك لأوجل

وأراد جميل أن يرحل إلى الشام فهجم ليلا على أبيات بثينة ليودعها ، وقد وجد غفلة فقالت له: أهلكتنى والله وأهلكت نفسك . فقال هذا وجهى إلى الشام وقد جئتك مودعا .

وحادثها طويلا ثم ودعها وقال : يابثينة ما أرانا نلتقى بعد هذا وبكيا طويلا وقال وهو يبكى .

ألا لا أبالى جفوة الناس مابدا لنـا منك رأى يابثين جميـل
وإنى وتـكرارى الزيارة نحوكم بثين بذى هجر بثين يطول
وإن صباباتى بـكم لـكثيرة بثين ونسيانيـكم لقليل

ولبث بالشام طويلا ثم عاد . وبلغ بثينة خـبر عودته فراسلته مع بعض نساء الحى، تذكر شوقها إليه ووجدها به وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها طويلا، وكان أهلها قد رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها ، فوثب عليهما جميل بسيفه ففرا منه وانصرف جميل وانقطع التلاقى بينهما مدة .

ودخل عليه ابن عم له يحبه اسمه روق فسمعه ينشد غزلا فى بثينة ويقول :

غراء مبسام كأن حديثها   در تحدر نظمه منثور
محطوطة المتنين مضمرة الحشا   ريا الروادف خلقها ممكور
لا حسنها حسن ولا كدلالها   دل ولا كوقارها توقير
إن اللسان بذكرها لموكل   والقلب صاد والخواطر صور
ولئن جزيت الود منى مثله   إنى بذلك يا بثين جدير

فقال له روق : لئن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها ألفت ذلك وسلوت، فبكى جميل وقال : يا أخى لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صواباً ولكنى لا أملك لى اختياراً ، وإنى لأرجوك أن تحمل على نفسك فى مساعدتى فقال : سأحاول ذلك حباً فيك .

إنها تخرج كل ليلة مع بنات عم لها إلى ملعب لهن ، وإن لى أخا من رهط بثينة من بنى الأحب تأوى عنده نهاراً، واسأله مساعدتى على ذلك فتقيم عنده أياما نهارك وتجتمع معها بالليل .

ومضى روق إلى الرجل فأخبره الخبر واستعهده كتمانه فقال له : لقد جئتنى بإحدى العظائم لأن فى ذلك معاداتى أهل الحى جميعاً إن فطن به أحد .

فقال له : أنا اتحرز فى أمره من أن يظهر، فواعده فى ذلك ومضى روق إلى جميل فأخبره بالقصة فأتيا الرجل ليلا فأقاما عنده ، وأرسل إلى بثينة بوليدة له تحمل خاتما جميلا فلما رأته عرفته فجاءت فتحدثا ليلتهما .

وأقام بموضعه ثلاثة أيام ثم ودعها وقال :

عن غير قلى والله ولا ملل يابثينة ، ولقد تذممت من هذا الرجل الكريم وتعريضه نفسه لقومه وأقمت عنده ثلاثا ولا مزيد على ذلك ، وانفرد جميل بنفسه وقال :

لقد لج ميثاق من الله بيننا ... وليس لمن لم يعرف الله من عهد
فلا وأبيها الخير ما خنت عهدها ... ولا لى علم بالذى فعلت بعدى
وما زادها الواشون إلا كرامة ... على وما زالت مودتها عندى
أفى الناس أمثالى أحب فحالهم ... كحالى أم أحببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما ... لقيت بها أم لم يجد أحد وجدى

وحدثت إحدى عجائز بنى عذرة فقالت :

كنا على ماء لنا وقد أبعدنا عن طريق الجادة لكثرة الجيوش التى كانت تأتى من الشام تريد الحجاز ، وكان رجالنا قد غادروا الحى فى سفر وكنت مع بثينة فى خبائها إذ انحدر علينا رجل من هضبة أمامنا فسلم علينا ونحن مستوحشون وجلون فتأملته ورددت السلام فإذا جميل

فقلت: أجميل ؟قال: إى والله! وإذا به لا يتماسك جوعا فقمت إلى قدر بها لبن فأدنيتها منه وقلت أصب منها فشرب منها وتراجعت نفسه فقلت: لقد تلفت ولقيت شراً ، فما أمرك ؟ فقال ، أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرجة ، فلما رأيت خروج فتياتكم أتيتكم لأودعكم ، وأنا عائد إلى مصر ، فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص .

ولما ثقل المرض على جميل بمصر ، قال لبعض خلانه .

هل لك فى أن أعطيك كل ما أملك على أن تفعل شيئاً أعهده إليك؟ فقال : اللهم نعم ، قال : إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها جانباً ، وكل شىء سواها لك، وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة وهم رهط بثينة فإذا صرت إليهم فضع على ناقتى رحلها واركبها ثم البس حلتى هذه واشققها ، ثم قف على مكان مرتفع وأنشد هذه الأبيات وهى:

صدع النعى وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجر الذيل فى وادى القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك دون كل خليل

وهكذا مات جميل أعف محب وأكرمه .

وقدم الرجل إلى رهط بثينة ونادى بالشعر فخرجت إليه امرأة يتبعها نسوة ، وقد فرعتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز فى دجنة، وهى تتعثر فى مرطها وقالت للرجل :

والله لئن كنت صادقا لقد قتلتنى فأخرج الرجل حلة جميل ، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها، وكانت هى بثينة .

واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبن جميلا .

وقالت بثينة ترثيه :

وإن سلُوى عن جميل لساعة   من الدهر ماحانت ولاحان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر   إذا مت بأساء الحيـاة ولينها

(٢)

قصـــة

عروة بن حزام وعفراء بنت عقال

من بنى عذرة

نشأ عروة يتيما فقيراً فى حجر عمه عقال ، وكانت عفراء بنت عمه تِرباً له يلعبان معاً ويجتمعان دائماً حتى تألف كل واحد منهما صاحبه إلفا شديداً وكان عمه عقال يقول لعروة وقد رأى ائتلافهما : أبشر يابنى ستكون عفراء من نصيبك إن شاء الله .

وامتدت بين الصبيين أواصر المودة حتى بلغ عروة مبلغ الرجال وبلغت عفراء مبلغ النساء فرسخت فى قلبيهما جذور الهوى .

فمشى عروة إلى عمته هند بنت مهاصر وقال لها : ياعمة إنى مكلمك وأنا منك مستحٍ فقد ضقت ذرعا بما أنا فيه .

فذهبت عمته إلى أخيها فقالت: يا أخى إنى أتيتك فى حاجة وأحب أن تحسن فيها الرد فإن الله يأجرك .

فقال : سلى ما شئت فإنى مجيبك . فقالت: أشتهى عليك أن تزوج ابنتك عفراء من عروة ، فقال : هو أحب الناس عندى ولن أرضى إلا به وإن كان لا مال له ، ولسنا فى عجلة من أمرنا .

فطابت نفس عروة بكلمات عمه وسكن بعض السكون ، ولكن أم عفراء كانت سيئة الرأى فى عروة فهى تريد لابنتها زوجا ذا مال ووفر .

فلما سمع أن رجلا من قومه ذا يسار ومال كثير يريد أن يخطب عفراء دنا من عمه فى لهفة وقال :

ياعم إنك قد عرفت حقى وقرابتى فأنا ولدك ربيت فى حجرك

وقد بلغنى أن رجلا خطب عفراء فإن أجبته إلى طلبه قتلتنى وسفكت دمى فأنشدك الله ورحمى وحقى .

فرق له عمه وقال له: يابنى أنت معدم وحالنا قريبة من حالك ، أما أنا فلست مخرجا عفراء إلى رجل غيرك ، غير أن أمها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال .

فاضطرب عروة واشتدت به الحال وذهب إلى أمها يلاطفها ويداريها ولكنها أبت أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر على أن يسوق شطراً منه معجلا .

فظهرت الحقيقة ناصعة أمام عروة فليس هناك إلا المال الذى تحتكم به أمها .

وكان له ابن عم موسر يقيم بالشام فرأى أن يزوره ويسأله العون وحدث عمه وزوجته بعزمه على ذلك فصوباه وعاهداه بألا يحدثا أى حدث حتى يعود من سفره .

فلما كانت ليلة سفره جلس مع عفراء ومن حولها بنات الحى من بنى عذرة يتحدثون حتى أصبحوا فودع عفراء وودع الحى وشد على راحلته . وخرج معه فتيان من أصدقائه فكان طول سفره ساهيا فإن كلماه لا يجيب ، وكان مشغولا بحب عفراء حتى بلغ دار ابن عمه فقص عليه حكايته مع عفراء .

فوصله ابن عمه وكساه وأعطاه مائة من الإبل فعاد إلى قومه والدنيا لاتسعه من الغبطة بما نال .

وكان رجل من أهل الشام يمت بالصهر إلى بنى أمية قد نزل فى بنى عذرة ، وكان ذا مال فنحر بعض إبله ووهب للناس وأطعمهم، فلمح عفراء تمشى بين بنات الحى فأعجبته فسأل عن أبيها وخطبها إليه فاعتذر وقال : إنى قد سميتها إلى ابن أخ لى يعد لها عندى، وليس لغيره سبيل إليها فقال الرجل: إنى أرغبك فى المهر،فقال: لاحاجة لى بمالك .

فعدل إلى أمها فرضيت به لبذله وكثرة ماله ووعدته خيراً وذهبت إلى زوجها تعاتبه وقالت: أى خير فى عروة حتى تحتبس ابنتى عليه،ألا ترى أن الغنى قدجاءها يطرق عليها بابها؟ والله ماندري أعروة حى أم ميت ؟

وهل ينقلب إليك بخير أم لا ؟ إنك تحرم ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً ، وألحت على زوجها حتى لان ورضى وقال : إن عاد لى خاطباً أجبته ، فأرسلت إلى الرجل فأعلمته .

فلما كان الغد نحر الرجل جزوراً عدة ، وأطعم الناس ووهب للفقراء وجمع الحى على طعامه وكان فيهم أبو عفراء .

فلما طعموا عاد الرجل إلى خطبة عفراء فأجابه أبوها وزوجة فساق إليه الرجل مهراً جليلا فتنكد عيش عفراء وقالت :

ياعرو إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وأقام الرجل بالحى ثلاثة أيام ثم ارتحل بعفراء إلى الشام .

وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجدده وسواه ، وسأل أهل الحى أن يكتموا أمرها ، وقدم عروة بعد أيام وهو يكاد يطير من شوقه إلى عفراء فنعاها أبوها إليه وذهب به إلى ذلك القبر فكان المسكين يختلف إليه وهو مضنى هالك ، فتسللت إليه جارية من الحى فكشفت له عن جلية الخبر .

فهام عروة على وجهه وترك الحى إلى الشام فجعل يسأل عن الرجل فدلوه عليه فنزل ضيفاً عليه بغير أن يعرفه بنفسه .

فأكرمه الرجل وأحسن ضيافته ولبث فى ضيافته أياماً ثم قال يوما الجارية بالدار : هل لك فى معروف تصنعينه بى؟ فقالت: نعم. قال: تدفعين خاتمى هذا إلى مولاتك .

فقالت : بئسما تفعل أما تستحى لقولك يارجل ؟ فقال لها : ويحك هى والله ابنة عمى وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس فاطرحى هذا الخاتم فى صحنها فإن أنكرت عليك فقولى لها : لقد سقط الخاتم من ضيفك، فرقت الأمة له وفعلت ما أمرها به .

فلما شربت عفراء لبن الصباح رأت الخاتم فعرفته فشهقت، ثم قالت للأمة : اصدقينى الخبر ، فصدقتها .

فلما جاء زوجها قالت له: أتدرى من هو ضيفك ؟ فقال : نعم هو فلان بن فلان ، وذلك للنسب الذى انتسب له عروة فقالت : كلا والله بل هو عروة بن حزام ابن عمى وقد أخفى عنك نفسه حياء منك .

فدعاه زوجها وقال له: لم يا أخي تخفي عني؟ أنت عندي في الرحب والسعة.

وخرج الزوج وترك عروة مع عفراء يتحدثان ودس لهما أمته لتستمع حديثهما فلما انفردا ببعضهما تشاكيا فطالت الشكوى.

وجعل عروة يبكي أحر بكاء وقامت عفراء ثم عادت تحمل إليه شراباً لترفه عنه حزنه.

فقال: والله يا أختاه ما دخل جوفي حرام قط، ولا ارتكبته منذ كنت، ولو استحللت حراما لكنت قد استحللته منك فأنت حظي من الدنيا وقد ذهبتِ مني وذهبت من بعدك الدنيا ولن أعيش بعد ذلك. وقد أجمل زوجك وأحسن وهو الرجل الكريم وأنا مستح منه، ووالله لا أقيم عندكم بعد اليوم وقد ظهرت حقيقتي له، ولست أخفي عنك أني راحل إلى منيتي.

فبكت عفراء وبكى عروة.

فلما جاء زوجها أخبرته أمته بما دار بينهما فرق قلب الرجل وقال: ياعفراء امنعي ابن عمك من السفر، فقالت: إنه لا يمتنع فهو والله أكرم وأشد حياء من أن يقيم بيننا من بعد ما جرى له معك.

فدعاه زوجها وقال: يا أخي اتق الله في نفسك، فقد عرفت خبرك وإنك إن رحلت تلفت روحك، ووالله لا أمنعك من رؤيتها أبداً. ولئن شئت أن أفارقها وأنزل عنها لك فعلت راضيا.

فجزاه عروة خيراً وأثنى عليه وقال له:

إنما كان الطمع فيها آفتي وقد يئست منها وحملت نفسي على الصبر عليها . فإن الصبر يسلي والله يقضي من أمري بما يشاء . فزودوه وأكرموه وشيعوه فانصرف .

فلما رحل عنهم انتكس بعد قوته وتماسكه وأصابه غشي وخفقان فكان كلما أغمي عليه ألقى على وجهه خمارا لعفراء كانت قد زودته به فيفيق ، والتقى به في الطريق عراف اليمامة فسأله عما به من وجع ، فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ فقال : نعم .

فأنشأ عروة يقول :

أقول لعراف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب
عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب
وإني لتغشاني لذكراك هزة لها بين جلدي والعظام دبيب

وبلغ عروة أرض الحي وقد أنحله الضنى، وكانت له أخوات وخالة وجدة فقمن من حوله يتوجعن لوجعه .

وزاره فتيان الحي وقال له بعضهم : مهلا فإنك قاتل نفسك فاتق الله فيها ، فقال له :

بي اليأس والداء الهيام سقيته فإياك عني لا يكن بك ما بيا

وزاره صديق وسأله عن حاله فرد عليه بصوت ضعيف :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

واشتد به المرض فالتفت إلى أخواته وقال :

من كان من أخواتي باكياً أبداً فاليوم إني أراني اليوم مقبوضا

وقضى إلى رحمة ربه فبرزت أخواته كأنهن الدمى فشققن جيوبهن وضربن خدودهن فأبكين كل من حضر .

وبلغ عفراء خبره فقامت لزوجها فقالت :

قد كان من خبر ابن عمى ما بلغك، ووالله ماعرفت منه قط إلا الحسن الجميل ، وقد مات فىّ وبسببي ولا بد لى من أن أندبه ، وأقيم مأتماً عليه

فقال : أفعلى فقالت ترثيه :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم   بحق نعيتم عروة بن حـــزام

فلا تهنأ الفتيان بعـــدك لذة   ولا رجعوا من غيبة بسلام

وأقامت تندبه ثلاثة أيام ثم لحقت به فى اليوم الرابع .

وبلغ معاوية بن أبى سفيان خبرهما فقال :

لو علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما .

---

(٣)

قصة

قيس بن ذريح الليثي ولبنى بنت الحباب الكعبية

حكوا أن قيس بن ذريح الليثى رضيع الإمام الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما إذ أرضعت أمه الإمام الحسين .

وكان منزل قومه فى ظاهر المدينة المنورة فى ضاحية اسمها شرف فمر قيس يوماً لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فوقف على خيمة منها ورجال الحى قد خرجوا فى سفر لهم .

وكانت خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية فاستسقى ماء فخرجت إليه به وسقته ، وكانت فتاة مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام ، فلما رآها وقعت فى نفسه وشرب الماء فقالت : أتنزل وتتبرد عندنا ؟ فقال نعم: ونزل بهم .

وجاء أبوها فنحر له وأكرمه فإنصرف قيس وفى قلبه من لبنى حر لا يطفأ فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورواه الناس، ثم زارها يوماً آخر وقد اشتد وجده بهافسلم فظهرت له وردت سلامه وتحفت به فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من حبها ، وشكت إليه مثل ذلك فأطالت وعرف كل واحد منهما ماله عند صاحبه .

فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله وسأله أن يزوجه إياها فأبى عليه وقال: يابنى عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك.

وكان ذريح كثير المال موسراً فأحب الا يخرج ابنه إلى غريبة .

فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه فلم يجد عندها ما يحب

فأتى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وابن أبى عتيق حفيد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فشكا إليهما ما به وما رد عليه أبوه .

فقال له الحسين : أنا أكفيك .

ومشى معه إلى أبى لبنى فلما علم بقدومه أعظمه ووثب إليه وقال: يابن رسول الله ما جاء بك؟ ألا بعثت إلى فآتيك؟ قال: إن الذى جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك خاطباً ابنتك لبنى لقيس بن ذريح فقال : يابن رسول الله ما كنا لنعصى لك أمراً وما بنا عن الفتى رغبة ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه علينا ، وأن يكون ذلك عن أمره فإنا نخاف إن لم يسع أبوه فى هذا أن يكون عاراً وسبة علينا.

فأتى الحسين رضى الله عنه ذريحاً وقومه وهم مجتمعون فقاموا إليه إعظاماً له وقالوا له ، مثل قول الخزاعيين، فقال لذريح : أقسمت عليك ألا خطبت لبنى لابنك قيس؟ قال : السمع والطاعة لأمرك.

وخرج فى وجوه قومه حتى أتوا لبنى فخطبها ذريح لأبيها على ابنه فزوجه إياها وزفت إليه بعد ذلك .

وأقامت معه مدة لاينكر أحد من صاحبه شيئا .

وكان قيس أبر الناس بأمه فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه فى نفسها وقالت: لقد شغلت هذه المرأة ولدى عن برى غير أنها لم تر للكلام فى ذلك موضعا حتى مرض قيس مرضاً شديداً ، فلما برأ من علته قالت أمه لأبيه : لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا، وقد حرم الولد من هذه المرأة، وأنت ذو مال فيصير مالك إلى الكلالة ، وأرى أن تزوج قيساً من امرأة غير لبنى لعل الله أن يرزقه ولداً وألحت عليه فى ذلك .

فأمهل قيسا حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال : ياقيس إنك اعتللت هذه العله فخفت عليك ولا ولد لك وليس لى ولد سواك ، وإن لبنى ليست بولود فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله أن يهب لك ولدا تقر به عينك وأعيننا .

فقال قيس: ولست متزوجاً غيرها أبدا ، فقال له أبوه: فإن فى مالى سعة فتسر بالإماء ، قال ولا أسوءها بشىء أبدا والله .

فقال له أبوه: فإنى أقسم عليك إلا طلقتها فأبى وقال : الموت والله أسهل على من ذلك ولكنى أخيرك خصلة من ثلاث خصال قال: وماهى؟ قال: تتزوج أنت يا أبت فلعل الله يرزقك ولدا غيرى، قال: فما فى فضلة لذلك . قال : فدعنى أرتحل عنك بأهلى واصنع ما كنت صانعاً لو مت فى علتى هذه . قال : ولا هذه. قال: فإنى أدع لبنى عندك وأرتحل عنك

وحدى لعلى أسلوها فإنى ما أحب ، بعد أن تكون نفسى طيبة ، أنها فى خيالى .

فقال أبوه : إنى لا أرضى إلا بطلاقها وحلف لا يكنه سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى .

فكان أبوه يخرج ليقف فى حر الشمس ويجىء قيس فيقف إلى جانبه فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفىء الفىء فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكى معه وتقول له : يا قيس لا تطع أباك فتهلك وتهلكنى فيقول: ما كنت لأطيع أحدا فيك أبدا وأقام على ذلك بضع سنين .

فكان يستأذن على أبويه ليزورهما فيردانه حتى يطلق لبنى .

فاضطر مرغماً إلى طلاقها .

وخرج رجل من أهل المدينة اسمه عبد الله بن صفوان فزار ذريح وعاتبه على فعلته .

وقال: ماحملك على أن فرقت بينهما أما علمت أن عمر بن الخطاب قال : ما أبالى افرقت بين الرجل وزوجته أم مشيت إليهما بالسيف .

فلما طلقت لبنى من قيس لم يلبث حتى استطار عقله ولحقه مثل الجنون وتذكر لبنى وحالها معه فأسف وجعل يبكى وينشج أحر نشيج .

وبلغ لبنى خبر طلاقها فأرسلت إلى أبيها ليحملها إلى أهلها فأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها .

فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها وقال : ويحك! ما دهانى فيكم فقالت: لا تسألنى وسل لبنى فذهب إلى خبائها فمنعه قومها . فأقبلت عليه امرأة من قومه وقالت: مالك ويحك! إنك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا .

فسقط مغشياً عليه لا يعقل فلما أفاق أنشد يبكيها :

وإنى لمفن دمع عينى بالبكا حذار الذى قد كان أو هو كائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفيك إلا أن ما حان حائن

وخرج يمشى بين مضارب قومه يبكيها ويقول .

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها بخير فلا تندم عليها وطلق
فطاوعت أعدائى وعاصيت ناصحى وأقررت عين الشامت المتخلق
وددت وبيت الله أنى عصيتهم وحملت فى رضوانها كل موبق
وكلفت خوض البحر والبحر زاخر أبيت على أثباج موج مغرّق
كأنى أرى الناس المحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عينى بعدها كل منظر ويكره سمعى بعدها كل مغرق

ولما ارتحل قومها أراد أن يتبعها فعلم أن أباها سيمنعه من المسير

معها فوقف ينظر إليهم ويبكى حتى غابوا عن عينه فكر راجعاً ورأى أثر خف بعيرها على الثرى فأكب عليه يقبله فعنفه قومه على تقبيل التراب فأشار إلى التراب يقول :

وما أحببت أرضكم ولكن أقبل أثر من وطىء الترابا
لقد لاقيت من كلفى بلبنى بلاء ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لبنى عييت فما أطيق له جوابا

ولما خلا بنفسه أقبل يلوم نفسه على طلاقها وخضوعه لرغبة أبيه ويقول: ليتنى رحلت بها عن بلد أبى فلم أر ما يفعل ولم يرنى فكان إذا فقدنى أقلع عما يفعله وإذا فقدته لم أتحرج من فعله، وما كان على لو كنت اعتزلته وأقمت بها فى حيها أو فى بعض بوادى العرب أو عصيته فلم أطعه ، هذه جنايتى على نفسى فلا لوم على أحد وهأنذا ميت بما فعلته وهل من سبيل إلى لبنى بعد الطلاق ؟ وبكى بعد هذا التأنيب والتقريع وقال :

الا ليت لبنى فى خلاء تزورنى فأشكو إليها لوعتى ثم ترجع
فيامن لقلب ما يفيق من الهوى ويا من لعين بالصبابة تدمع

وتألمت أمه لألمه فبعثت له فتيات من قومه، وأوصتهن بأن يداعبنه ويذكرن العيوب بلبنى ويعيرنه بما يفعله من أجلها فاجتمعن حواليه يمازحنه وهو لاه عنهن فلما أطلن القول التفت إليهن وقال :

يقر بعيني قربها ويزيدني بها كلفاً من كان عندي يعيبها
وكم قائل قد قال تب فعصيته وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمي بأول نفس غاب عنها حبيبها

ومرض المسكين من شدة وجده وحزنه ، فسأل أبوه فتيات الحي أن يعدنه ويحدثنه لعله يرضى بإحداهن ويسلو بعض هواه فلما اجتمعن عنده وأطلن عليه قال :

عيد قيس من حب لبنى ولبنى داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادني العوائد يوماً قالت العين لا أرى من أريد
ليت لبنى تعودني ثم أقضي إنها لا تعود فيمن يعود

ودخل عليه أبوه مع الطبيب يعوده فأنبه ولامه وقال: يابني! الله الله في نفسك فإنك ميت إن دمت على هذه الحال فقال :

وفي عروة العذري إن مت أسوة وعمرو بن عجلان الذي قتلت هند
وبي مثل ما قد نابه غير أنني إلى أجل لم يأتني وقته بعد
هل الحب إلا عبرة بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع تستهل إذا بدا لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

فرجع أبوه إلى قومه حزيناً أسيفاً وحدثهم بما جرى على قيس فأشاروا عليه أن يزين له المسير إلى أحياء العرب والنزول عليهم فلعل عينه أن تقع على امرأة تعجبه ،فأقسم عليه أبوه أن يفعل ذلك فسار حتى

نزل بحى من قبيلة فزارة فرأى جارية حسناء قد حسرت برقع الخز عن وجهها وهى كالبدر ليلة تمه، فقال لها : ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمى لبنى فسقط على وجهه مغشياً عليه فارتاعت لما حل به ونضحت على وجهه الماء ثم قالت ، إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون .

فلما أفاق سألته عن نسبه فى القبائل فذكره لها، قالت : قد علمت أنك قيس، ولكن نشدتك الله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا .

وقدمت إليه طعاماً فأصاب منه بإصبعه وركب ناقته منصرفاً .

وجاء على الأثر أخ لها كان غائباً فرأى مناخ الناقة فسألهم عنه فأخبروه فلحق به حتى رده إلى منزله ، وحلف عليه ليقيمن عنده شهراً وسر به الفزارى وأعجب بحديثه وعقله وروايته وعرض عليه أن يصاهره ،فقال له قيس: يا هذا إن فيك لرغبة ولكنى فى شغل لا ينتفع بى معه فعاوده الحديث مرات ، حتى اجتمع أهل الفتى الفزارى حوله يلومونه على رغبته فى مصاهرة قيس لأن ذلك يصبح سبة عليهم، فقال لهم: دعونى وشأنى فنى مثل هذا الفتى يرغب الكرام .

وألح الفزارى على قيس برغبته حتى أجابه فعقد له على أخته لبنى وقال له : إنى أسوق عنك صداقها .

فقال له قيس: أنا والله يا أخى أكثر قومى مالا فلا تكلف نفسك شيئاً ، إنى عائد إلى قومى لأسوق إليكم المهر .

وارتحل وأعلم أباه بما كان منه فسر أبوه وساق المهر عنه.

ورجع قيس إلى الفزاريين فأدخلوا عليه زوجته، فماهش لها ولادنا منها ولا خاطبها بكلمة ولا نظر إليها، وأقام على ذلك أياماً كثيرة، ثم أخبر أهلها أنه يريد العودة إلى قومه لبعض شأنه فأذنوا له فى ذلك فانصرف إلى المدينة وكان بها صديق له من الأنصار فلما التقيا حدثه الأنصارى أن خبر زواجه نقل إلى لبنى فغمها وقالت: إنه لغدار ولقد كنت أرفض الزواج كلما عرضه أهلى على فأنا الآن أجيبهم.

وكان أبو لبنى قد شكا قيسا إلى أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان وقال: إنه يتعرض لابنتى بعد أن طلقها فكتب معاوية إلى والى المدينة مروان بن الحكم وأمره أن يهدر دم قيس إن تعرض للبنى.

وأمر أباها أن يزوجها رجلا من كندة حليف قريش، فزوجها أبوها منه فأحاط بها نساء الحى ليلة زفافها وجعلن يغنين:

لبينى زوجها أصبح لا حر بواديه
له فضل على الناس بما باتت تناجيه
وقيس ميت حى صريع فى بواكيه
فلا يبعده الله وبعداً لنواعيه

فجزع قيس للخبر جزعا شديداً وجعل يبكى أحر بكاء ، ثم ركب من فوره حتى أتى الحى الذى كانت فيه لبنى فناداه نساء الحى ماتصنع الآن ههنا وقد نقلت لبنى إلى زوجها ؟

واعترضه الفتيان بالملامة وهو ساكت لا يجيبهم، حتى أتى موضع خبائها فنزل عن راحلته وجعل يمرغ خده على ترابها ويبكى ويقول :

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون بجسمه ... نحيل وعهد الوالدين قديم
بكت دارهم من نأيهم فتهللت ... دموعى فأى الجازعين ألوم ؟

وقام إلى بعيره فارتحل إلى قومه ، وقال يناجى لبنى :

ألبنى لقد جلت عليك مصيبتى ... غداة غد إذ حل ما أتوقع
أخبرت أنى فيك ميت حسرتى ... فما فاض من عينيك للوجدمدمع
صبيحة جاء العائدات يعدننى ... فظلت على العائدات تفجع
إذا أنت لم تبكى على جنازة ... لديك فلا تبكى غداً حين أرفع

وبلغ ديار قومه فاقتطع قطعة من إبله وأخبر أباه أنه يريد المدينة ليبيعها ويشترى بثمنها قوتاً لأهله ، فلما نزل المدينة بالإبل مر به زوج لبنى وهما لا يتعارفان فساومه زوج لبنى بناقة منها فباعه إياها ، وقال له الآخر: إذا كان الغدفأتنى فى دار كثير بن الصلت فاقبض الثمن فرضى قيس وانصرف زوج لبنى إلى داره وقال للبنى: إنى ابتعت ناقة من رجل من أهل الباديةوهو يأتينا غداً ليقبض الثمن فأعدى له طعاماً ففعلت .

فلما كان من الغد حضر قيس وصاح بالخادمة أن قولى لسيدك : صاحب الناقة بالباب .

فعرفت لبنى نغمته ولكنها لم تتكلم، فقال زوجها للجارية: قولى له: ادخل فدخل فجلس فقالت لبنى للخادمة : قولى له : يافتى مالى أراك أشعث أغبر، فلما سمع ذلك من الخادمة تنهد ثم قال لها: هكذا تكون حال من فارق الأحبة واختار الموت على الحياة وبكى .

فقالت لبنى للخادمة : قولى له : حدثنا حديثك فلما بدأ يتكلم كشفت الحجاب عن نفسها وقالت : حسبك قد عرفنا حديثك وأسبلت الحجاب .

فبهت لوقته ثم انفجر باكيا ونهض فخرج .

فناداه زوجها :ويحك ماقصتك؟ ارجع فاقبض ثمن ناقتك وإن شئت زدناك ، فلم يكلمه قيس وخرج إلى ناقته فارتحل .

وقالت لبنى لزوجها: ويحك هذا قيس بن ذريح فما حملك على مافعلت به؟ فقال: ما كنت أعرفه من قبل.

وجعل قيس يبكى فى الطريق حتى بلغ الحى واجتمع بأهله .

فدخل إليه أبوه ورجال قومه فعاتبوه وناشدوه الله أن يقلع عن غيه، فقال: ويحكم أترونى أمرضت نفسى أم وجدت لها سلوة بعد اليأس

فاخترت الهم والبلاء أم صنعت بنفسى هذا الصنيع ؟هذا ما اختاره لى أبواى وقتلانى به .

فبكى أبوه ودعا له بالفرج مما نزل به، فقال له قيس :

لقد عذبتنى ياحب لبنى   فقع إما بموت أو حياة
فإن الموت أروح من حياة   تدوم على التباعد والشتات
وقال الأقربون : تعز عنها   فقلت لهم : إذن حانت وفاتى

وشهر أمر قيس بالمدينة فلم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بسيرته وغنى فى شعره كبار المغنين كالغريض ومعبـــد ومالك فطرب الناس ولـكنهم حزنوا لقيس .

ودخل زوج لبنى عليها مغضبا معاتبا وقال : لقد فضحتنى بذكرك فغضبت وقالت له: ياهذا إنى والله ماتزوجتك رغبة فيك ولا فى مالك ولا خفى أمرى عليك فإنك تعلم أننى كنت زوجة لقيس قبلك، وأنه أكره على طلاقى ووالله ماقبلت الزواج إلا لأن الحاكم قد أهدر دمه إذا ألم بحينا فخشيت أن يحمله الحب على المخاطرة فيقتل فتزوجتك، وإن أمرك الآن إليك ففارقنى فلا حاجة بى إليك .

فأمسك عن جوابها وجعل يترضاها وجمع لها جوارى المدينة يغنين لها بشعر قيس ،ولـكنها كانت تزداد تمادياً وبعدا ولا تزال تبكى كلما سمعت بأخبار قيس.

وكان بالمدينة امرأة من موالى بنى زهرة اسمها بريكة من أظرف النساء وأكرمهن وكان لزوجها دار ضيافة بالمدينة فرحل إليها قيس فوثب إليه غلمان الدار ليحطوا رحله ، فقال قيس: لن أنزل حتى ألقى بريكة فخرجت إليه وسلمت عليه ورحبت به، فقال: إنى ما قصدتك إلا لحاجة فى نفسى فقالت : إن حاجتك مقضية كائنة ما كانت . فقال : أنا قيس بن ذريح. قالت: حياك الله وقربك إن ذكرك لجديد عندنا فى كل وقت . فقال : أما حاجتى إليك فهى أن أرى لبنى نظرة واحدة . فقالت: ذلك لك على.

فنزل قيس بدار الضيافة وأخفت بريكة أمره ثم أهدى لها هدايا كثيرة، وقال لها: لاطفيها هى وزوجها حتى يأنس بك ففعلت .

وزارتها مراراً ثم قالت لزوجها : أخبرنى عنك هل أنت خير من زوجى؟ قال :لا. فقالت : وهل لبنى خير منى ؟ فقال :لا، فقالت:فما بالى أزورها ولا تزورنى. فقال : هذا أمر متروك لها، فأتتها بريكة وسألتها أن تزورها بدار الضيافة وأسرت إليها أن قيساً عندها فأسرعت لبنى بزيارتها فلما رآها قيس ورأته بكيا حتى كاد البكاء يتلفهما ، وجعلت تسأله عن أحواله وعن علته فيجيبها ويسألها عن حالها فتجيبه وأنشدها :

أعالج من نفسى بقايا حشاشة على رمق والعـــائدات تعود
فإن ذكرت لبنى هششت لذكرها كما هش للثدى الدرور وليد

ولبث معها طول يومه يحدثها ويشكو لها أعف حديث وأكرم

شكوى حتى أمسى ولكنها لم تعد فقد شاع خبر اجتماعهما .

فارتحل قيس يريد الشام فدخل إلى يزيد بن معاوية فشكا إليه ما به فرق له وقال: إن شئت أن أكتب إلى زوجها فأحتم عليه أن يطلقها فعلت . فقال: لا أريد ذلك ولكن أحب أن أقيم بحيث تقيم هى من البلاد فأتعرف أخبارها وهذا يكفينى من غير أن يهدر دمى .

فأعد يزيد له كتاباً من أبيه معاوية إلى والى المدينة بأن يتركوا قيساً وشأنه فيقيم حيث شاء وأحب ولا يعترض عليه أحد .

وكان بالمدينة سيد من سادات قريش اسمه عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق وشهرته ابن أبى عتيق عرفه الناس كريماً سباقاً للمكرمات، وكان شديد العطف على قيس يتوجع لوجعه ويروى فى المجالس شعره فى لبنى فحدثته نفسه الكريمة أن يجمع شمل هذين الحبيبين فذهب إلى الإمامين الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم وإلى عبد الله بن جعفر بن عمهما وقال لهم :إن لى حاجة إلى رجل أخشى أن يردنى فيها، وإنى أستعين بجاهكم وأموالكم عليه .

فاستجابوا لدعوته ومضى بهم إلى زوج لبنى .

فلما رآهم أكبر سعيهم إليه فقالوا : لقد جئناك بأجمعنا فى حاجة لابن أبى عتيق، فقال: هى مقضية كائنة ما كانت .

فقال له ابن أبى عتيق: أتقضيها لنا كائنة ما كانت من ملك أو مال

أو أهل ؟ فقال : نعم . فقال له: تهب لهم ولى لبنى زوجتك وتطلقها .

فقال : فإنى أشهدكم أنها طالق ثلاثا .

فاستحيا القوم واعتذروا وقالوا : والله ما عرفنا من قبل أن هذه هى حاجة ابن أبى عتيق ولو علمنا ذلك ما سألناك فيها .

وعوضه الحسن من ذلك مائة ألف درهم .

وحمل ابن أبى عتيق لبنى من ساعته إلى منزله ، وبقيت عنده حتى انقضت عدتها ، فسأل القوم أباها فزوجها قيسا وجمع الله شملهما .

(٤)

قصـــة

قيس وليلى العامريين

كانت منازل بنى عامر فى أقصى الشمال من الصحراء العربية بعد وادى القرى الذى فيه بنو عذرة .

وقيس بن الملوح وليلى بنت مهدى كلاهما من قبيلة بنى حريش وهى فخذ من بنى عامر .

كان قيس بن الملوح فتى عشيرته نسباً وثراء ، أبيض الوجه أجعد الشعر أحسن من رأيت من لداته ، وله أخوة يجلسون حول أبيهم ولـكنه كان أجملهم وأظرفهم وأكثرهم رواية لأشعار العرب .

وكانت ليلى بنت مهدى من أجمل النساء وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدباً .

وأول لقاء بينهما وهما صبيان يرعيان الإبل، فلما كبرا خرج قيس يوماً على قومه فوق ناقة كريمة، وعليه حلتان من حلل الأمراء فمر بنسوة يتحدثن وفيهن ليلى فأعجبهن جماله وكماله ودعونه إلى النزول والحديث معهن .

وكانت العرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات. وكان قيس قد رجل جمته (وضع العطر فى مقدم رأسه) ومس طيباً وتقلد سيفه، فلما رأى ليلى بينهن ذكر أيام طفولتهما وهما يرعيان الإبل وذكر شعراً قاله فيها وحادثها ومن معها ، وأمر عبداً له كان معه فعقر لهن ناقته .

واستدار إلى ليلى فأطال الحديث معها فأقبلت عليه، وصار كل واحد منهما مقبلا على صاحبه معجباً به وأقاما على ذلك الحال حتى أمسيا فانصرف إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقا إليها ، فلما كان اليوم التالى أصبح فلبس حلته وركب ناقة أخرى فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد أحبته كما أحبها فاذكرها بأيام طفولتهما وهما معاً وقال :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم، ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

ولبث عندها يحدثها حتى أمسيا فانصرف إلى أهله فبات بأطول من ليلته الأولى لم يغمض له جفن فأنشد يقول :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولبث فترة يتردد عليها طول نهاره ، حتى أقبل عليها يوماً كعادته وكان بمجلسها بعض أهل الحى فأعرضت عنه، وأقبلت بحديثها على غيره تريد بذلك محنته لتعلم ما فى قلبه ، فلما رأى منها ذلك الإعراض جزع جزعا شديداً حتى بان فى وجهه وعرف فيه فخافت عليه وأقبلت عليه تقول :

كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مكين

فأشرق وجهه فرحا فقد كشفت له عن قلبها وقالت له :

إنما أردت أن أمتحنك وإن الذى لك عندى حب ووفاء أكثر مما لى عندك وأعطى الله عهداً إن جالست بعد يومى هذا رجلا سواك حتى أذوق الموت :

فانصرف عنها وهو أشد الناس سروراً وأقرهم عيناً .

وعلم أهلها بعشقه لها فمنعوه من زيارتها وصدوه فاشتد به الوجد عليها حتى مرض فزاره أهله يعزونه ويقولون له: نزوجك أنفس جارية فى عشيرتك فيأبى إلا ليلى ويهذى بها .

فخرج أبوه وأمه ورجال العشيرة إلى أبى ليلى فناشدوه الله والرحم وقالوا : إن قيساً مشرف على الموت وذهاب العقل ، وإنك لتفجعنا به وإن ابنتك ليست بأشرف منه ولا لك مثل ما لنا وقد حكمناك فى المهر .

فأبى أبو ليلى وحلف بالله وبطلاق أمها أنه لا يزوجه بها أبداً ولا يفضح نفسه وعشيرته ولا يأتى بما لم يأته أحد من العرب ، فانصرفوا عنه .

وتدله قيس فى حبها ونظم فيها الدرر الغالية من النسيب فقال :

ووالله ما أدرى علام قتلتنى وأى أمورى فيك ياليلَ أركب
أأقطع حبل الوصل فالموت دونه أم اشرب رنقا منكم ليس يشرب؟
أم اهرب حتى لا أرى لى مجاوراً أم اصنع ماذا أم أبوح فأغلب؟
فأيهما ياليل ما ترتضينه فإنى لمظلوم وإنى لمعتب

وعمد أبو ليلى إلى تزويجها من رجل من عشيرته فحمل الخبر إلى قيس فذهب عقله حزناً وغما .

فقال أهل الحى لأبيه : احجج به إلى البيت الحرام ودعه يتعلق

بأستار الكعبة ويدعو الله أن يعافيه مما به ويبغضها إليه ، فحج به أبوه وبلغوا منى ، هنالك سمع قيس صائحاً بالليل ينادى: ياليلى! فصرخ صرخة عظيمة حتى ظن أهله أن نفسه قد تلفت وسقط مغشياً عليه وما أفاق حتى الصباح ، وكان حائل اللون ذاهلا . فأنشأ يقول :

عرضت على قلبي العزاء فقال لى: من الآن فايأس لا أعزك من صبر
إذا بات من تهوى وأصبح نائيا فلاشىء أجدى من حلولك فى القبر
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج إطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فقال له أبوه : تعلق يابنى بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم زدنى لليلى حباً وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا .

وخرج قيس يوماً شاتيا فرأى زوج ليلى يصطلى وبين يديه جمرات فأنشأ قيس يخاطبه :

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيـــل الصبح أو قبلت فاها ؟
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة فى نداها ؟

فقال له : اللهم إذ حلفتنى فنعم، فقبض قيس بكلتا يديه قبضتين من الجمر فمافارقهما حتى سقط مغشيا عليه وسقط الجمر مع لحم راحتيه، فقام زوج ليلى منصرفا وهو مغموم .

واشتد الهوى بالمسكين فكان يتحين الفرص حين يخرج رجال الحى إلى معاشهم فينزل إلى منزل ليلى فضاق بذلك أهلها ، وشكوه إلى الوالى فأهدر دمه لهم فحذروه عاقبة أمره فلم يبال وقال : الموت أروح لى فليتهم قتلونى . فلما علم أهلها بذلك ارتحلوا عن منازلهم وأبعدوا .

وعاد قيس إلى منازل ليلى فألفى الحى قفراً ، فقصد إلى بيت ليلى فألصق صدره بثراه وجعل يمرغ خديه .

ويقول

وشغلت عن فهم الحديث سوى ما كان فيـــك فإنه شغلى
وأديم لحظ محـــدثى ليرى أن قد فهمت وعنـدكم عقلى

وجن المسكين فقال قولته التى اختلس من أجلها عقله .

وهى

قضاها لغيرى وابتلانى بحبهـا فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيـا

فقال الناس إن هذا البيت اعتراض منه على قضاء الله .

وأنه سمع بالليل نداء فيه : « أنت المتسخط على قضاء الله المعترض على أحكامه » .

وخرج قيس بموكب ليلى فى رحيلها إلى بيتها الجديد فرآها على متن راحلتها فعرفها وعرفته فصعق وخر مغشياً عليه فأقبل فتيان من حى ليلى فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا ليلى أن تقف له وقفة فرقت له وبدا منها الحزن والأسى ، وأوفدت

إليه جاريتها تقرأ عليه السلام وتقول : إنى لو وجدت سبيلا إلى شفائك لوقيتك بنفسى .

فقال

بى اليأس والداء الهيام أصابنى   فإياك عنى لا يكن بك ما بيا
كأن جفون العين تمشى دموعها   غداة رأت أظعان ليلى غواديا
غروب أمرتها نواضح بزل   على عجل عجم يروين صـــاديا

وأراد أحد أصدقائه أن يزوره فى الحى فقيل له : لقد هجر الحى إلى الفلاة وتوحش وما لنا به عهد ولا ندرى إلى أين سار، فخرج الرجل فى جماعة من أهله إلى الصحراء فبدا له قطيع من الظباء بينها شبح إنسان يرى من خلال الظباء فعرفه الرجل بأنه قيس ونزل عن دابته وتخفف من ثيابه وجعل يمشى رويدا حتى بلغ أراكة فارتقاها حتى بلغ أعلاها وأشرف على الظباء وعلى قيس، فإذا به وقد تدلى الشعر على وجهه فما كاد يعرفه فرفع قيس رأسه فأسرع الرجل وأنشد بيتاً من أشعار قيس فى ليلى وهو :

أتبكى على ليلى ونفسك باعدت   مزارك من ليلى وشعبا كما معا

فنفرت الظباء واندفع قيس ينشد باقى القصيدة نشيداً رقيق النغم حلو التغنى رخيم الصوت وقال :

بكت عينى اليسرى فلما زجرتها   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
وأذكر أيام الحى ثم أنثنى   على كبدى من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحى برواجع   عليك ولـكن خل عينيك تدمعا

ورفع قيس رأسه إلى الرجل وقال له: من أنت حياك الله؟ فقال: أنا نوفل بن مساحق، فحياه قيس، فقال له نوفل: ماذا أحدثت بعدى فى يأسك من ليلى فقال:

ألا حجبت ليلى وآلى أميرها ... على يمينا جاهداً لا أزورها
وأوعدنى فيها رجال أبوهمو ... أبى وأبوها، خشنت لى صدورها
على غير جرم غير أنى أحبها ... وأن فؤادى رهنها وأسيرها

وسنحت لقيس ظباء فقام يعدو فى أثرها حتى لحقها فمضى معها وخلف صديقه نوفل مكروباً محزوناً.

وعاد قيس من سروحه بين الظباء فرأى رجلين قد صادا ظبية فربطاها بحبل وذهبا بها، فلما رآها قيس وهى تركض فى الحبال دمعت عيناه وقال لهما حلاها وخذا مكانها شاة من غنمى، وأعطاهما شاة فحلا الحبال عن الظبية فولت تعدو هاربة.

فقال قيس يخاطب الرجلين:

ياصاحبى اللذين اليوم قد أخذا ... فى الحبل شبها لليلى ثم غلاها
إنى أرى اليوم فى أعطاف شاتكما ... مشابها أشبهت ليلى فحلاها

ونظر إلى الظبية وهى تعدو فقال:

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى ... لك اليوم من وحشية لصديق

ويا شبه ليلى لو تلبثت ساعة لعل فؤادى من جواه يفيق
تفر وقد أطلقتها من وثاقها فأنت لليلى لو علمت طليق

وخرج رجل إلى نجد فى طلب بغية له فإذا هو بخيمة قد رفعت له وقد أصابه المطر فعدل إليها ورفع صوته فإذا امرأة قد كلمته وقالت: انزل فنزل، ورأى إبلا وغنما فإذا أمر عظيم، فقالت لعبيدها: سلوا هذا الرجل، من أين أقبل، فقال: من ناحية تهامة ونجد، فقالت: ادخل أيها الرجل فدخل إلى ناحية من الخيمة فأرخت بينها وبينه سترا ثم قالت: ياعبدالله أى بلاد نجد وطئت ؟ فقال: كلها، فقالت عند من نزلت هناك ؟ فقال: نزلت ببنى عامر. فتنفست الصعداء ثم قالت فبأى بنى عامر نزلت ؟ فقال: ببنى الحريش، فبكت ثم قالت: فهل سمعت بذكر فتى منهم يقال له: قيس بن الملوح الملقب بالمجنون؟ فقال: بلى والله وعلى أبيه نزلت ثم أتيت ولده قيساً فرأيته يهيم فى تلك الفيافى مع الوحش لا يعقل إلا إذا ذكرت له امرأة يقال لها: ليلى، فيبكى وينشد أشعاراً قالها فيها.

فرفعت المرأة الستر الذى بينهما فإذا فلقة قمر لم ترعين الرجل مثلها، فبكت أحر بكاء حتى ظن أن قلبها قد تصدع، فقال لها: اتقى الله أيتها المرأة فى نفسك، فقالت من خلال دموعها:

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجع
بنفسى من لا يستقل برحله ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

فقال لها الرجل : من أنت يا أمة الله وما قصتك ؟ فقالت :

أنا ليلى المشئومة عليه غير المؤنسة له .

ولبث قيس مع السائمة يهيم فى الصحراء ، يذهب إليه أهله كل يوم بطعامه فيوضع حيث يراه ، حتى إذا عادوا إلى الحى جاء فأكل من الطعام .

ولحق به صديق له يريد الحديث معه فلما رآه قيس ولى وهو يتغنى بأبيات له فقال :

وإنى لمفن دمع عينى بالبكا حذاراً لما قد كان أو هو كائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبن ، وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفيك إلا أن ما حان حائن

وعاد الصديق فى اليوم التالى لعله يراه وطلبه فلم يجده .

وجاءت امرأة كانت تصنع له الطعام إلى الطعام الذى تركته له فوجدته بحاله .

فلما كان اليوم الثالث خرج أهله يبحثون عنه فلم يجدوه ، فخرجوا فى اليوم الرابع فعثروا به فى واد كثير الحجارة ، وهو ميت بين تلك الحجارة فاحتمله أهله .

ولم تبق فتاة من بنى جعدة ولا بنى الحريش إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه .

واجتمع فتيان الحى يبكونه أحر بكاء وينشجون عليه أشد نشيج .

وحضر حى ليلى معزين وتقدم أبوها فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه ويقول : ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكنى كنت امرأ عربياً أخاف العار وقبح الأحدوثة . فما روى يوم كان أكثر باكية وباكياً على ميت من ذلك اليوم .

(٥)

قصـــة

سلامة القس

كانت سلامة مولدة من مولدات المدينة المنورة، وكان مولاها سهيل بن عبد الرحمن القرشى، وكانت حلوة الوجه ظريفة حسنة الصوت ضاربة بالعود. وتقول الشعر، أحسن مولدات المدينة، أتقنت الموسيقى عن جميلة سيدة المغنيات بالمدينة، وكان ذلك فى عصر الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، فاختار عثمان بن حيان المرى والياً على المدينة. فلما قدم قال له قوم من وجوه المدينة: إنك قد وليت على كثرة من الفساد فإن كنت تريد أن تصلح فطهرها من الغناء والمغنين!

فاهتم الوالى بذلك وأنذر المغنين بمغادرة المدينة بعد ثلاثة أيام.

وكان من سادات قريش بالمدينة رجل عرف بالفضل والعفاف والصلاح اسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وشهرته ابن أبى عتيق وكان غائباً عن المدينة، ثم عاد إليها فى آخر ليلة من الأيام الثلاثة، وكان كثير التردد على منزل سلامة معجبا بغنائها. فذهب إلى منزلها قبل أن يدخل منزله، وقال لها: ما دخلت منزلى حتى جئتكم أسلم عليكم! فقالت: إنك لا تدرى من أمرنا شيئاً! وأخبرته الخبر فخرج، واستأذن ليزور الوالى عثمان بن حيان فأذن له فسلم عليه وذكر غيبته وأنه جاء للسلام عليه وشكره على ما فعل من إخراج أهل الغناء. وقال: هذا خير ما تصنع من أعمالك.

فقال: لقد أشار به على أصحابك. فقال: أصبت، ولكن ماتقول

أعزك الله فى امرأة كان الغناء صناعتها وكانت أكرهت عليه ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام وفعل الخير، وإنى رسولها إليك فهى تتوسل إليك وتعوذ بك أن تخرجها من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده .

فقال له : إنى أتركها إكراماً لك ،فقال ابن أبى عتيق : إذن لا يرضى عنك الناس . ولكنى أرى أن تأتيك هى فتسمع كلامها وتنظر إليها فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يترك تركتها .

قال: نعم .

فذهب إليها وقال: اجعلى معك مسبحة وتخشعى ففعلت .

فلما دخلت على عثمان حدثته فإذا هى من أعلم الناس بالناس ،وأعجب بها وحدثته عن آبائه وحوادثهم فسر منها كثيراً .

فقال لها ابن أبى عتيق اقرئى للأمير بعض القرآن فقرأته .

فقال لها : ترنمى بالحداء ففعلت فكثر تعجبه !

فقال له : كيف لو سمعتها فى صناعتها ، فلم يزل ينزله شيئاً شيئاً حتى أمرها بالغناء .

فقال لها ابن أبى عتيق : غنى فغنت .

سددن خصاص الخيم لما دخلنه   بكل لسان واضح وجبين

فقام الوالى من مجلسه وقعد بين يديها ، وقال لها : لا والله لاتخرجين من المدينة أبدا .

فقال ابن أبى عتيق : إذن ينفر منك الناس ويقولون : أخرج من من المدينة كل المغنين وأبقى سلامة .

فقال الوالى : بل يبقى جميع المغنين فتركوهم .

وانتقلت سلامة بعد ذلك إلى مكة بعد أن بيعت إلى آل رمانة فكان يدخل عليها الشعراء فينشدون الشعر وتنشدهم وتغنى لهم .

وكان المتردد عليها من الشعراء ابن قيس الرقيات والأحوص .

وكان بمكة رجل من القراء العباد الصالحين اسمه عبد الرحمن ابن أبى عمار يلقبونه القس لتعبده ، فسمع غناء سلامة على غير تعمد منه فبلغ منه كل مبلغ وشغف بها .

ألم ترها لا يبعد الله دارها إذا رجعت فى صوتها كيف تصنع؟
تمد نظام القول ثم ترده إلى صلصل من صوتها يترجع

وذاع بين الناس حبه لسلامة حتى لقبوها بلقبه فقالوا سلامة القس .

وسمعه الناس يترنم متغزلا فيها يقول :

سلام هل لى منكمو ناصر أم هل لقلبى عنكمو زاجر ؟
قد سمع الناس بوجدى بكم فمنهـــم اللائم والعـاذر

فمر يوما يستمعها فرآه مولاها فدعاه ليدخله عندها فيسمع منها فأبى عليه، فقال له : فإنى أقعدك فى مكان تسمع منها ولا تراها فقال : أما هذا فنعم .

فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها، ثم أمرها فخرجت إليه فلما رآها علقت بقلبه فهام بها واشتهر وشاع خبره بالمدينة وجعل يتردد إلى منزل مولاها مدة طويلة، ثم إن مولاها خرج يوما لبعض شأنه وخلفه مقيما عندها

فقالت له : أنا والله أحبك .

فقال لها : وأنا والله أحبك .

فقالت: وأنا والله أشتهى أن أعانقك، وأنت ترى المكان خالياً فما يمنعك منى ؟

قال يمنعنى قول الله عز وجل :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين »

فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة .

ثم خرج من عندها وهو يبكى وما عاد إليها بعد ذلك .

وهذا غاية ما بلغه الحب العف .

وحج يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو ولى عهد الخلافة الأموية ، فلما قضى مناسك الحج سمع غناء سلامة فأعجبته ، فلما ولى الخلافة أرسل رسله إلى مكة فاشتروا سلامة من مواليها بعشرين ألف دينار وخرج بها رسل الخلافة فشيعها الناس من أهل مكة وقد حشروا حول القصر الذى نزلته قبل سفرها ، فوقفت بينهم تحمل العود وغنتهم وداعها :

فارقونى وقد علمت يقينا   ما لمن ذاق ميتة من إياب
أهل بيت تتابعوا للمنايا   ما على الدهر بعدهم من عتاب
كم بذاك الحجون من حى صدق   وكهول أعفة وشباب

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى غابت وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها .

---

(٦)

قصـــة

فرحة العاشق

كان معبد اليقطيني غلاماً مولداً خلاسياً من مولدى المدينة المنورة أخذ الغناء عن جماعة من علية المغنين بالعراق مثل إسحاق وابن جامع، وكان منقطعاً إلى البرامكة فحكى عن نفسه فقال : كنت فى منزلى ذات يوم فإذا الباب يدق فخرج غلامى ثم رجع وقال :

بالباب فتى ظاهر المروءة يستأذن عليك ، فأذنت له فدخل علىّ ما رأيت أحسن وجها منه ولا أنظف ثوباً ولا أجمل زياً منه ، دنف عليه آثار السقم ظاهرة ، فقال : إنى أرجو لقاءك منذ مدة فلا أجد إليه سبيلا . وإن لى حاجة ، قلت : ما هى؟ فأخرج ثلثمائة دينار فوضعها بين يدى وقال : أسألك أن تقبلها وتصنع فى بيتين قلتهما لحناً تغنينى به .

فقلت هاتهما فأنشدهما وقال :

والله يا طرفى الجانى على بدنى   لتطفئن بدمعى لوعة الحزن
أولا أبوحن حتى يحجبوا سكنى   فلا أراه ولو أدرجت فى كفنى

فصنعت فيهما لحناً ثم غنيته إياه فأغمى عليه حتى ظننته قد مات ثم أفاق فقال :

أعد فدتك نفسى فناشدته الله فى نفسه وقلت : أخشى أن تموت .

فقال هيهات ، أنا أشقى من ذلك .

وما زال يخضع لى ويتضرع حتى أعدته فصعق صعقة أشد من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت. فلما أفاق رددت الدنانير عليه ووضعتها بين يديه وقلت ياهذا خذ دنانيرك وانصرف عنى فقد قضيت حاجتك ولست أحب أن أشرك فى دمك .

فقال: ياهذا لا حاجة لى بالدنانير . فقلت: لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على شرطين ، قال: وما هما، قلت :

أولا — أن تقيم عندى وتتحرم بطعامى .

والثانية — أن تحدثنى بقصتك .

فقال : أفعل ما تريد .

فأخذت الدنانير ودعوت بطعام فأصاب منه إصابة خفيفة ، ثم غنيته بشعر غيره فى معناه ، وهو يبكى، ثم قال: الشرط أعزك الله فغنيته فجعل يبكى أحر بكاء وينشج أشد نشيج .

فلما رأيته قد خف ما به كررت عليه صوته مراراً. ثم قلت :حدثنى حديثك، فقال :

أنا رجل من أهل المدينة خرجت يوماً متنزها فى ظاهرها ؛ وكان وادى العقيق قد فاض بمائه ، وكنت بين أقرانى وأخدانى .

وخرج الجماهير فبصرنا بقينات قد خرجن لمثل ماخرجنا له فجلسن إلى جانبنا ، وألفيت فيهن فتاة كأنها قضيب قد طله الندى .

فأطلنا الجلوس وهن قد أطلن حتى تفرق الناس وانصرفن فانصرفنا نحن وقد أبقيت بقلبي جرحا بطيئا اندماله .

فعدت إلى منزلى على غير هدى ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحد فلم أر لها ولا لصاحباتها أثراً . ثم جعلت أتتبعها فى طرق المدينة وأسواقها فكأن الأرض أضمرتها فلم أحس بعين ولا أثر

وسقمت حتى أيس منى أهلى .

وزارتنى حاضنتى وسألتنى عن حالى فأخبرتها بقصتى ، فقالت : لا بأس عليك ! هذه أيام الربيع وليس يبعد عنك المطر .

وهـــذا العقيق فتخرج وأخرج معك فإن النسوة سيحضرن فإذا فعلن ورأيتها اتبعتها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك فى تزويجها .

فكأن نفسى اطمأنت إلى ذلك ووثقت به فقويت وتراجعت نفسى .

جاء مطر بعقب ذلك فأسال الوادى وخرج الناس وخرجت مع إخوانى إليه فجلسنا مجلسنا الأول بعينه .

فما كنا والنسوة إلا كفرسى رهان ، وأومأت إلى حاضنتى فجلست بالقرب منا ومنهن .

فأقبلت على إخوانى وقلت لقد أحسن القائل حيث قال :

رمتنى بسهم أقصدالقلب وانثنت وقد غادرت جرحا به وندوبا

فأقبلت هى على صاحباتها فقالت :أحسن واللهالقائل، وأحسن من من أجابه حيث يقول :

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجا يشفى السقام قريبا

فأمسكت عن الجواب خوفاً من أن يظهر منى ما يفضحنى وإياها وعرفت ما أرادت ، ثم تفرق الناس وانصرفنا وتبعتها حاضنتى حتى عرفت منزلها ، فعادت إلى فأخذت بيدى ومضينا إليها فلم تزل تتلطف حتى وصلت إليها فتلاقينا وتداورنا على حال مخالسة ومراقبة . وشاع حديثى وحديثها وظهر مابينى وبينها، فحجبها أبوها وتشددعليها فحاولت لقاءها فلم أقدرعليه فشكوت إلى أبى ما نالنى، وسألته خطبتها فمضى أبى ومشيخة أهلى إلى أبيها فخطبوها .

فقال: لوكان بدأ بهذا قبل أن يفضحها ويشهرها لأسعفته بما التمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقق قول الناس فيها. فانصرفت على يأس منها ومن نفسى .

قال معبد :

ثم جلس مولاى الوزير جعفر بن يحيى البرمكى فأتيته أغنيه كعادتى فكان أول صوت غنيته صوتى فى شعر الفتى فطرب عليه طرباً شديداً

وقال : ويحك : إن لهذا الصوت حديثاً فما هو ؟ فحدثته بأمر الفتى فأمر بإحضاره فأحضر من وقته واستعاده الحديث فأعاده عليه .

فقال جعفر : هى فى ذمتى حتى أزوجك إياها . فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح .

وغدا جعفر إلى الرشيد فحدثه الحديث فعجب منه ، وأمر بإحضارنا جميعا وأمرنى بأن أغنى الصوت فغنيته .

وسمع حديث الفتى فأمر من وقته بالكتابة إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وابنته وجميع أهله إلى حضرته ، فلم يمض إلا مسافة الطريق حتى حضر فخطب الرشيد إليه ابنته للفتى وأقسم عليه ألا يخالف أمره فأجابه وزوجه إياها .

وحمل الرشيد إليه ألف دينار لجهازها ، وألف دينار لنفقة الطريق وأمر للفتى بألف دينار ، وأمر جعفر لى وللفتى بألف دينار ، وصار الفتى بعد ذلك فى جملة ندماء جعفر بن يحيى .

(٧)

قصـــة

محمد بن صالح العلوى

هو محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب .

وكان فتى شاعراً صالح الشعر من ظرفاء أهل الحجاز ومن المتقدمين فى الشعر من أهل البيت .

وكان فى أيام الخليفة المتوكل على الله العباسى .

فخرج عليه مع جماعة من أهل بيته وأصحابه ، وكان يسكن بأهله ضاحية للمدينة تدعى سويقة ، وهى منزل أبناء الإمام الحسن بن على ابن أبى طالب جدهم .

فحدث أنه كان يوماً بين إخوانه حتى انتصف الليل فقام فتقلد سيفه وخرج فتبعه بعض بنى عمه وقد أشفقوا عليه من خروجه فى ذلك الوقت فالتفت إليهم مبتسما وقال :

إذا ما اشتملت السيف والليل لم أهـــل
بشىء ولم تقـــرع فؤادى القوارع

وسار مع جمع من أصحابه فى سيوفهم واخترقوا دروب القوافل التى تحمل حجاج العراق .

فمرت بهم قافلة تعج بمحامل النساء ومن حولها فرسان من أهل مدينة سر من رأى .

فدهمهم محمد بن صالح وأصحابه فولوا منهزمين وقد ملكوا القافلة

جعل أصحابه ينيخون جمالها فطلعت عليه من العمارية امرأة ما رأى قط أحسن منها وجهاً ولا أحلى منها منطقا .

فقالت : يافتى إن رأيت أن تدعو لى الشريف المتولى أمر هؤلاء الفرسان . فقال لها محمد بن صالح : لقد رأيته وسمع كلامك . فقالت : سألتك بحق الله وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت هو ؟

فقال : نعم وحق الله وحق رسوله إنى لهو .

فقالت: وأنا حمدونة بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحزمى، ولأبى محل من سلطانه ولنا نعمة، إن كنت ممن سمع بها فقد كفاك ما سمعت ، وإن كنت لم تسمع بها فسل عنها غيرى ، ووالله لا استأثرت عليك بشىء أملكه ولك بذلك عهد الله وميثاقه علىّ . وما أسألك إلا أن تصونى وتسترنى ، وهذه ألف دينار معى لنفقتى فخذها حلالا .

وهذا حلىّ علىّ من خمسمائة دينار فخذه . وضمنى ما شئت بعده آخذه لك من تجار المدينة أو مكة أو أهل الموسم، فليس منهم أحد يمنعنى شيئاً أطلبه ، وادفع عنى وارحمنى من أصحابك ومن عار يلحقنى .

فوقع قولها من قلبه موقعاً عظيما وقال لها :

قد وهب الله لك مالك وجاهك وحالك ، ووهب لك القافلة بجميع ما فيها :

ثم خرج فنادى فى أصحابه فاجتمعوا ، فنادى فيهم : إنى قد أجرت هذه القافلة وأهلها وخفرتها وحميتها،ولها ذمة الله وذمةرسوله وذمتى، ومن أخذ منها خيطاً أو عقالا فقد آذنته بحرب .

وانصرف مع أصحابه وخلى القافلة لسبيلها .

ومضت حمدونة فى القافلة حتى أتمت مناسك الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم عادت إلى سر من رأى وكانت عاصمة ملك الخليفة المتوكل على الله العباسى .

وذاع بين الناس حديث القافلة وما جرى لها من خوارج أهل المدينة الحسنيين بدرب الحجاز حتى بلغ مسامع الخليفة ، فأنفذ جيشا كبيراً مع رجل من قواده يدعى أبا الساج فقاتلهم أشـــد قتال وقتل بعضهم ، وأخرب ضاحية السويقة مقرهم وحرق منازلهم بها وعقر بها نخلا كثيراً وأثر فيهم وفى قريتهم آثارا قبيحة .

وحمل محمد بن صالح وجماعة منهم فى الحديد إلى سر من رأى وزجوا بهم فى السجون .

ولبث فى السجن ثلاث سنين ، فلما طال عليه المدى فى سجنه قال متوجعاً :

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه   وتشعبت شـــعبا به أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى   برق تألق موهنـــا لمعانه

فدنا لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليـــه وردء سبحانه
فالنار ما اشتملت عليـه ضلوعه والمـاء ما سحت به أجفانه
وبدا له أن الذى قد ناله ما كان قـــدره له ديانه
يا قلب لا يذهب بحلمك باخل بالنيـــل باذل تافه منانه
واقنع بمـا قسم الإله فأمره مالا يزال عن الفتى إتيـانه
والبؤس ماض ما يدوم كما مضى عصر النعيم وزال عنك أوانه

فبينما هو ذات يوم فى سجنه إذ جاءه السجان وقال له : إن بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك، وقد حظر على أن يدخل عليك أحد غير أنهما قد وهبتا لى دملجاً من ذهب ، وتوسلتا إلى أن أحملهما إليك وقد أذنت لهما ، وهما فى الدهليز فاخرج إليهما إن شئت .

ففكر فيمن يجيئه فى هذا البلد وهو غريب به لا يعرف أحداً من أهله، ثم قال: لعلهمامن بعض نساء أهلى ،ثم خرج إلى الدهليز فرأى حمدونة بنت عيسى وعرفها .

أما هى فحين رأته بكت إذ تغير من طول الحبس وثقل القيد الحديد .

فأقبلت عليها الأخرى التى كانت معها وقالت : أهو هو ؟

فقالت : أى والله ! إنه لهو هو . ثم أقبلت حمدونة عليه .

ثم أقبلت حمدونة عليه وقالت : فداك أبى وأمى! والله لو استطعت أن أقيك مما أنت فيه بنفسى وأهلى لفعلت وكنت بذلك منى حقيقاً .

والله لاتركت المعاونة لك ، والسعى فى حاجتك وخلاصك بكل حيلة ومال وشفاعة .

وقدمت له صرة وقالت : هذه دنانير وثياب وطيب فاستعن بها على موضعك ، ورسولى يأتيك فى كل يوم بما يصلحك حتى يفرج الله عنك .

وأخرجت له من الصرة كسوة وطيبا ومائتى دينار، وكان رسولها يأتيه فى كل يوم بطعام نظيف ويتواصل برها بالسجان فلا يمنع عنه أى شىء أراده .

وسعى كبار رجال الدولة لدى الخليفة المتوكل فى العفو عن محمد بن صالح ، واتصلوا به فى سجنه ونقلوا عنه الكثير من شعره فى الشكوى والتفجع لطول مكثه فى السجن .

وجاء بشعره الوزير الفتح بن خاقان إلى المغنين فلحنوه وغنوا به فى مجلس المتوكل فاستحسن المتوكل الشعر والغناء وهى الأبيات التى قال فى مطلعها :

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه وتشعبت شعبا به أشجانه

وسألهم المتوكل عمن قال الشعر فأخبره أهل مجلسه وكلموه

فى أمر محمد بن صالح وأحسنوا الشفاعة فيه ، وقام وزيره الفتح فى ذلك خير قيام .

فأمر المتوكل بإطلاقه من حبسه على أن يكون عند الفتح وفى يده ، حتى يقيم كفيلا بنفسه ألا يبرح سر من رأى ، فأطلقوا سراحه وأخذ الفتح عليه الأيمان الموثقة ألا يبرح سر من رأى إلا بإذن منه .

فأثنى محمد بن صالح خير الثناء على الخليفة ومدحه بقصائده .

ودخل مدينة سر من رأى وخالط سراة الناس ووجوه أهل البلد .

وفاض به حبه لحمدونة بنت عيسى فقال .

لعمر حمدونة إنى بها لمغرم القلب طويل السقام
مجاوز للقدر فى حبها مباين فيها لأهل الملام
مشايعى قلب يخاف الخنا وصارم يقطع صم العظام
جشمنى ذلك وجدى بها وفضلها بين النساء الوسام
زينها الله وما شانها وأعطيت منيتها من تمام
تلك التى لولا غرامى بها كنت بسامرا قليل المقام

وأخذ يراسلها ليرى إن كانت ترضى به بعلا لها فأنعمت واستجابت له وقالت: إنما أمرى إلى أبى .

فذهب إلى أبيها عيسى بن موسى وخطبها إليه فأعرض عنه ورده

وقال ما كنت لأنسى ماقد شاع فى الناس عنك فى أمرها، وقد فضحت أعراضنا بين الناس .

فخرج من مجلسه منكساً رأسه حياء وقال فى طريقه :

رمونى وإياها بشنعاتهم بها ... أحق أدال منهم فتعجلا
بأمر تركناه ورب محمد ... عياناً فإما عفة أو تجملا

وكان من خلصائه بين وجوه الناس وأدبائها سرى عظيم يدعى إبراهيم بن المدبر فزاره يوماً وقال له: إنى أريد المقام عندك اليوم على خلوة لأبثك من أمرى شيئاً لا يصلح أن يسمعه غيرنا ، فرحب به وصرف من مجلسه من كان معه ثم خلا به .

فلما أكلا واضطجعا حدثه بحديث حمدونة بنت عيسى وما جرى له معها فى موسم الحج وفى السجن ، وما صنعت به من دلائل المروءة إلى أن عفا عنه المتوكل، ثم تدرج فى حديثه فوصف زيارته لأبيها وعودته من مجلسه منكس الرأس محزون الفؤاد .

فواساه ابن المدبر وطيب خاطره وقال له: إن عيسى بن موسى والد حمدونة من صنائع أخى وهو لى مطيع، وأنا أكفيك أمره، فلما كان من الغد زار ابن المدبر عيسى فى منزله وقال له قد جئتك فى حاجة لى فقال : هى مقضية ، وكان أحب إلى أن تأمرنى فأجيئك ، فقال له : قد جئتك خاطبا إليك ابنتك ، فقال: هى أمة وأنا لك عبد وقد أجبتك .

فقال له إنى خطبتها على من هو خير منى أبا وأما وأشرف لك متصلا وهو محمد بن صالح العلوى .

فقال له : ياسيدى هذا رجل قد لحقتنا بسببه ظنة وقيلت فينا اقوال .

فقال له ابن المدبر : أليست كل تلك الأقوال باطلة ؟ فقال : بلى والحمد لله . فقال له : فكأنها لم تقل . وإذا تم بينكما الزواج زال كل قول وتشنيع .

وجعل يرفق به ويهون عليه من وقع الحادث حتى أجاب .

فبعث إلى محمد بن صالح فأحضره وزوجه من حمدونه وساق عنه مهرها .

فأثنى محمد بن صالح أطيب الثناء على صديقه ابن المدبر ونظم فيه الدرر من مدائحه وقال فى مطلع إحداها :

أخ واساك فى كلب الليالى   وقد خذل الأقارب والنصير

وعاش ممتعا بحمدونة ردحا من الزمن فاشتد به الحنين إلى وطنه بالحجاز ، وجاهد فى الرجاء إلى وجوه الدولة ليؤذن له بالرجوع إلى وطنه فلم يجب إلى طلبه .

فأقام على رغمه بسر من رأى حتى توفى إلى رحمة الله

(١)

حكاية

الأحوص الشاعر وأم جعفر

كانت أم جعفر امرأة من الأنصار عرفت بالعفة وصدق الحديث، وحكوا أن الأحوص الشاعر قد شبب بها فأكثر من الشعر ، وسمعه الناس فيما قال فيها :

وإنى ليدعونى هوى أم جعفر وجاراتها من ســـاعة فأجيب
وإنى لآتى البيت ما إن أحبه وأكثر هجر البيت وهو حبيب
وأغضى على أشياء منكم تسوؤنى وأدعى إلى ما ســـركم فأجيب

فغضب أخوها وتوعد الأحوص وشكاه إلى والى المدينة ، وكان عمر بن عبدالعزيز ، ولما أكثر الأحوص من ذكر أم جعفر وفشا بين الناس شعره فيها وغناه المغنون، خرجت على الناس فى نقابها حتى وقفت على الأحوص فى مجلس قومه وكان لا يعرفها ، فقالت له : ادفع لى ثمن الغنم التى ابتعتها منى، فقال: ما ابتعت منك شيئاً ،فأظهرت له كتابا من صنع يدها قد لفقته عليه، وبكت وشكت للحاضرين، وقالت: ياقوم كلموه ليدفع

لى ثمن غنمى ، فلامه قومه وقالوا : اقض للمرأة حقها، فجعل يحلف أنه ما يعرفها ولا رآها قط . فكشفت وجهها وقالت له: ويحك أما تعرفنى؟ فجعل يحلف مجتهداً أنه ما يعرفها ولا رآها قط .

فاستفاض قولها وقوله، واجتمع حولها الناس وسمعوا مادار وكثر لغطهم وأقوالهم، فقامت أم جعفر ثم قالت: أيها الناس اسكتوا. ثم أقبلت على الأحوص وقالت: يا عدو الله، لقد صدقت والله ما لى عندك دين، وأنت لا تعرفنى. وقد حلفت على ذلك وأنت صادق ، وأنا أم جعفر، وأنت تقول فى شعرك قلت لأم جعفر وقالت لى أم جعفر .

فخجل الأحوص وانكسر ، وتحدث النـاس بطهر أم جعفر وبراءتها .

(٢)

حكاية

بين ابى يوسف القاضى وابن جامع المغنى

كان ابن جامع مع ما عرف له من التقدم والسبق فى الغناء والنغم من أحفظ خلق الله لكتاب الله .

كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلى الصبح .

فقدم مرة على أمير المؤمنين الرشيد ببغداد ، وكان ابن جامع يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ، ويركب حماراً مريشيا فى زى أهل الحجاز .

فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه إذ أقبل أبو يوسف القاضى بأصحابه أهل القلانس، فلما دنا من الباب وقعت عينه على ابن جامع فرأى سمته وحلاوة هيئته، فجاء فوقف إلى جانبه ثم قال له: أمتع الله بك، توسمتك من أهل الحجاز قرشيا فقال له: أصبت. فقال: فمن أى قريش أنت؟ قال: من بنى سهم قال: فأى الحرمين منزلك؟ قال مكة. قال: ومن لقيت من فقهائهم؟ فقال له: سل عمن شئت، ففاتحه الفقه والحديث فوجد عندهما أحب فأعجب به، ونظر الناس إليهما وقالوا: هذا القاضى قد أقبل على المغنى وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع .

وفى اليوم التالى اجتمع الناس بباب يحيى بن خالد يلتمسون الإذن عليه ، وكان فيهم أبو يوسف القاضى الذى جعل يتلفت حوله باحثاً عن ابن جامع ، فلما عثر به وقف بجانبه وحدثه طويلا كما فعل فى المرة الأولى .

فلما انصرف أبو يوسف قال له أصحابه : أيها القاضى أتعرف هذا الرجل الذى كنت توافقه وتحادثه ؟ قال : نعم ، هو رجل من قريش من أهل مكة من الفقهاء . قالوا : بل هو ابن جامع المغنى ، فقال أبو يوسف: إنا لله

فقال له أصحابه : إن الناس قد شهروك بالوقوف معه وأنكروا منك ذلك الفعل . وفى اليوم الثالث اجتمع الناس بباب يحيى بن خالد يلتمسون الإذن عليه، وكان فيهم أبو يوسف القاضى وابن جامع المغنى .

ولما رأى أبو يوسف ابن جامع بعد عنه فعرف ابن جامع أن الناس حذروه منه .

فدنا من أبى يوسف وسلم عليه فرد عليه ولكن بغير الوجه الذى كان يلقاه به ، وكان ابن جامع جهيراً فرفع صوته وقال : يا أبا يوسف ، مالك تنحرف عنى؟أى شىء أنكرت منى؟ قالوا لك:إنى ابن جامع المغنى فكرهت الوقوف معى. إنى أسألك عن مسألة واصنع بعدها ماشئت .

ومال الناس إليهما يستمعون فقال ابن جامع: يا أبا يوسف لو أن أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

أ كنت ترى بذلك بأساً؟ فقال: لا، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله فى الشعر .

قال ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا .

وغنى بيت الشعر ثم قال : يا أبا يوسف أرأيتنى زدت فيه أو نقصت منه ؟

فقال له: عافاك الله أعفنا من ذلك ، فقال له ابن جامع: ألا ترى أنى حسنته بلفظى فحسن فى السماع ووصل إلى القلب، وذلك دليل على أن النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فأخرجته الطبيعة بالألحان .

(٣)

حكاية

مرت جارية على ظهرها قربة بأبى ريحانة المدنى، وهى تغنى وتقول:

وأبكى فلا ليلى بكت من صبابة . إلى ولا ليلى لذى الود تبذل
وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذى أتنصل

فقام إليها أبو ريحانة وقال: ياسيدتى أعيدى. فقالت: إن مولاتى تنتظرنى والقربة على ظهرى.

فقال: أنا أحملها عنك. فدفعتها إليه فحملها وغنته الصوت فطرب ورمى بالقربة فشقها.

فقالت له الجارية: أمن حقى أن أغنيك وتشق قربتى؟

فقال لها: لا عليك! تعالى معى إلى السوق فجاءت معه فباع ملحفته واشترى لها بثمنها قربة جديدة.

(٤)

حكاية

من غريب ما قرأنا فى الجزء السابع من كتاب الأغانى ، أن رجلا اسمه برْدان من أهل المدينة المنورة كان مغنيا ، وقد أخذ الغناء عن معبد وعزة الميلاء وجميلة ، ومع ذلك لم يكن مجرحاً لدى القضاء بل كان مقبول الشهادة .

فعين ولياً للحسبة بأسواق المدينة يفصل فى الخصومات بين الناس وكان ذلك فى أيام الأمويين .

فتقدم إليه يوما رجل يشكو خصماً له ادعى عليه بحق له ، فأمر بردان بحبس المدعى عليه .

فقال له الخصم : إنك أعلم بفن آخر غير فن الحكم بين الناس — يريد فن الغناء — فقال له : لعلك تعنى الغناء ، إنى والله به لعارف ولو سمعت شيئاً جديداً جاء البارحة لازددت علماً وفهماً ، ومهما جهلت فإنى بوجوب الحق عليك لعالم ، اذهبوا به إلى الحبس حتى يؤدى إلى غريمه حقه .
وكان بردان رجلا خفيف الروح طيب الحديث مليح النادرة .

(٥)

حكاية

تقـدم مغن اسمه دهمان للشهادة أمام قاض اسمه عبد العزيز ابن المطلب لرجل من أهل المدينة على رجل من أهـل العراق ، وأجاز القاضي شهادته، فقال له العراقي : إنه دهمان المغني،فقال القاضي: إني أعرفه ولو لم أعرفه لسألت عنه ، فقال العراقي : إنه يغني ويعلم الجواري الغناء ، فقال له القاضي ، غفر الله لنا ذلك وأينا لا يتغنى؟ فخرج دهمان وهو يقول : ما رأيت باطلا أشبه بحق من الغناء .

(٦)

حكاية

قال المغيرة بن شعبة : ما غلبني إلا غلام من بني الحارث ابن كعب ، وذلك أني خطبت امرأة من قبيلته ، وكان عندي ذلك الغلام ، فقال : أيها الأمير لا خير لك فيها ، فقلت : يابن أخي ومالها ؟ قال : إني رأيت رجلا يقبلها فعدلت عنها ، فبلغني أن ذلك الفتى تزوجها . فقلت له : ألم تخبرني أنك رأيت رجلا يقبلها ؟ قال : بلى لقد رأيت أباها يقبلها .

(٧)

سائب خاثر

كان من موالى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، اشتراه ثم أعتقه وهو أول صوت غنى به فى الإسلام من الغناء العربى بالمدينة ، وكان فى أول أمره يغنى مرتجلا ، ويقرع بقضيب ، ثم اتخذ العود .

وهو أستاذ الغناء العربى ، نقل عنه ابن سريج ومعبد وعزة الميلاء وجميلة، وكان فى خدمة عبد الله بن جعفر ، قد آلى ألا يغنى لأحد سواه إلا أن يكون خليفة أو ولى عهد، ومع ذلك فقد كان يخالط سروات الناس وأشرافهم لظرفه وحلاوته وحسن صوته .

ووفد عبدالله بن جعفر على معاوية بن أبى سفيان فى خلافته ، ومعه سائب خاثر فقضى معاوية له حوائجه، فعرض عليه عبد الله حاجة لسائب خاثر، فسأله معاوية عنه فقال : رجل من أهل المدينة يروى الشعر ، فقال معاوية : أو كل من روى الشعر نصله ؟ فقال : إنه أحسنه ، ثم قال : أفأدخله إليك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم .

فألبسه إزارا ورداء فلما دخل قام على الباب ثم رفع صوته يتغنى :

لمن الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر
وخلالها من بعد ساكنها حجج مضين ثمان أو عشر

وقدم معاوية المدينة المنورة فأمر حاجبه بالإذن للناس فخرج ثم عاد فقال: ما بالباب أحد.

فقال معاوية: وأين الناس؟ فقال: عند ابن جعفر. فدعا معاوية ببغلته فركبها إلى بيت ابن جعفر، فلما جلس أشار رجل من قريش إلى سائب خاثر فقام يمشي بين السماطين وغنى:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فسمع منه معاوية وطرب.

(٨)

حكاية

كانت جارية بسوق المدينة تسوق بعيراً وتترنم بالشعر بصوت مليح فقالت :

ألا أيها البيت الذى حيل دونه   بنا أنت من بيت وأهلك من أهل

ثلاثة أبيات فبيت أحبه   وبيتان ليسا من هواى ولاشكلى

فطرب من صوتها شاب من أهل السوق ، وقال : لمن هذا الشعر يا جارية ؟

قالت : أما ترى تلك الكوة الموقاة بالكلة الحمراء ؟ فقال إنى أراها . فقالت: من هناك نهض هذا الشعر . فقال: أوقائله فى الأحياء . قالت : هيهات لو أن ميتا يرجع لطول غيبته .

(٩)

حكاية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان ، على معاوية بن أبى سفيان ، فقال له: علام جعلت ولدك يزيد ولى عهدك دونى، فوالله لأبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وأنا خير منه . وقد وليناك فما عزلناك ، وبنا نلت ما نلت .

فقال له معاوية : أما قولك : إن أباك خير من أبيه فقد صدقت . لعمر الله : إن عثمان لخير منى. وأما قولك: إن أمك خير من أمه، فحسب المرأة أن تكون فى بيت قومها، وأن يرضاها بعلها، وأن ينجب ولدها . وأما قولك: إنك خير من يزيد، فوالله يابنى ما يسرنى أن لى بدل يزيد ملء الغوطة مثلك .

وأما قولك: إنكم وليتمونى فما عزلتمونى، فما وليتمونى ، وإنما ولانى من هو خير منكم : عمر بن الخطاب، فأقررتمونى ، وما كنت بئس الوالى لكم ، لقد قمت بثأركم وقتلت قتلة أبيكم ، وجعلت الأمر فيكم وأغنيت فقيركم ، ورفعت الوضيع منكم .

فكلمه ولده يزيد ، فولى سعيداً خراسان .

(١٠)

حكاية

طلب معاوية محمد بن جعفر بن أبي طالب من سيد بني خثعم، لأنه استجار به من معاوية وكان من أخواله .

فقال له معاوية : أسلم إلينا هذا الرجل .

فقال : هو ابن أختنا قد لجأ إلينا لنحقن دمه فدعه عنك يا أمير المؤمنين :

فقال : والله لا أدعه حتى تأتيني به ، فقال له: لا والله لا آتيك به.

فقال معاوية : كذبت والله لتأتيني به . إنك ما علمت لأحمق .

فقال الرجل : أجل إني لأحمق حين أقاتلك على ابن عمك لأحقن دمه ، وأقدم ابن عمي دونه لتسفك دمه .

فسكت عنه معاوية وخلى بينه وبينه .

(١١)

حكاية

عزة الميلاء

كانت عزة مولاة للأنصار ومسكنها المدينة وهى أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز . وكانت من أجمل النساء وجهاً وأحسنهن جسماً ، وسميت الميلاء لتمايلها فى مشيها ، وكانت من أحسن الضاربين بالعود مطبوعة على الغناء ، لا يعيبها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه. وكان مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عزة قالوا : لله درها ! ما كان أحسن غناءها ومد صوتها وأندى حلقها ، وأحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وأجمل وجهها وأظرف لسانها وأكرم خلقها ، كانت ذات إسلام لا يشوبه دنس ، إذا جلست جلوساً عاما فكأن الطير على رءوس أهل مجلسها ، من تكلم أو تحرك نقر الطير رأسه .

وكان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب سيد بنى هاشم وابن أبى عتيق حفيد أبى بكر الصديق وغيرهم من رجالات قريش يغشونها فى منزلها فتغنيهم ، وكان عمر بن أبى ربيعة شاعر قريش الأكبر يقيم بمكة ويزور عزة بالمدينة يستمع إلى غنائها .

(١٢)

حكاية

عائشة بنت طلحة

إن جدها لأمها أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وخالتها السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أجمل النساء وأكملهن حسناً ، وما كانت تستر وجهها من أحد فعاتبها زوجها فى ذلك ، فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال ، أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله مافى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد .

وكانت إلى جانب ذلك شرسة الخلق وقيل : إن ذلك كان شأن نساء قبيلتها بنى تيم فهن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن . وذكروا أن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما تزوج من أم إسحق بنت طلحة وهى أخت عائشة فكان رضى الله عنه يقول عنها : إنها ربما حملت ووضعت . وهى مصارمة لى لا تكلمنى .

وعائشة بنت طلحة تشبه السيدة عائشة أم المؤمنين خالتها ، وهى التى زوجتها من عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، فهو ابن أخيها

وابن خال عائشة بنت طلحة، فغاضبته وخرجت من دارها وعليها ملحفة تريد منزل خالتها السيدة عائشة ، فمرت بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها الصحابى الجليل أبو هريرة ، فقال : سبحان الله كأنها من الحور العين. فمكثت عندالسيدة عائشة أربعة أشهر ومات زوجها بعد حين ، وقد رزق منها ثلاثة ذكور وابنتين .

وتزوجها من بعده مصعب بن الزبير ، وكان واليا على العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير الذى كان الخليفة ، فأمهرها مصعب خمسمائة ألف درهم ، فأذاقته الأمرين من نفارها، فشكا ذلك إلى كاتبه ، فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذنت لى ، فقال له : افعل ماشئت .

فزارها الكاتب ليلا ومعه عبدان أسودان فاستأذن عليها فقالت : أفى مثل هذه الساعة؟ قال: نعم، فلما دخل قال للعبدين: احفرا ههنا بئرا فقالت جاريتها: وما نصنع بالبئر ؟ فقال: لقدأمرنى ذلك القاسى القلب يريد زوجها مصعب ، وألح على أن أدفن مولاتك عائشة ، وهى حية، لأنه أسفك خلق الله للدم الحرام ، فقالت له عائشة: ترفق قليلا حتى ألقاه ، فقال : هيهات لاسبيل إلى ذلك ، وصاح بالعبدين أن احفرا فلما رأت عائشة الجد منه بكت ، وقالت: إنك قاتلى مامنه بد ، قال : نعم وإنى أعلم أن الله سيجزيه بعدك ولكنه فى حال غضبه الآن ، وهو كافر الغضب .

فقالت : وماذا أغضبه ؟ فقال: هو يرى أنك تبغضينه و تتطلعين إلى

رجل غيره ، فبكت وبكى جواريها معها وقالت: اذهب إليه واضمن عنى أنى لن أعود إلى مغاضبته أبدا ، قال: فأعطينى المواثيق على ذلك فأعطته، وصلحت بعد ذلك لمصعب.

وخرج مصعب يوما إلى حرب ضروس مع جيوش بنى أمية وغاب عن عائشة فترة طويلة ، ثم آب من غزوته منصورا ، فخرجت فهنأته بالفتح ، وجعلت تمسح التراب عن وجهه ، فقال لها: إننى مشفق عليك من رائحة الحديد ، فقالت : لهو والله عندى أطيب من ريح المسك الأذفر .

وكان مصعب من أشدالناس إعجابا بها،إذ لم يكن لها شبه فى زمانها حسناً ودماثة وجمالا وهيئة ومتانة وعفة .

وحكوا أن عائشة دعت نسوة من قريش وأجلستهن فى مجلس نضد فيه الريحان والفواكه والطيب المجمر ، وخلعت على كل امرأة منهن خلعة تامة من الوشى والخز ونحوها، ودعت عزة الميلاء ، وقالت لها: غنينا فغنت من شعر امرىء القيس :

وثغر أغر شتيت النبات لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا من مجلس النساء ومعه أخوان له، فقام فانتقل حتى دنا منهن، والستور مسبلةفصاح وقال: ياعزة إنا قد ذقناه فوجدناه

على ما وصفت فبارك الله فيك ، فخرجت عزة إلى مجلس الرجال وغنت مصعباً هذا الصوت مراراً .

وكبرت عائشة بنت طلحة حتى أيام عبد الملك بن مراون ، وكان الحارث بن خالد الشاعر القرشي والياً على مكة من قبل عبد الملك ، وكان يهوى عائشة ويذكرها فى شعره فحجت عائشة ، وجعلت تطوف بالبيت فأذن المؤذن وخرج للصلاة فأرسلت عائشة إلى الحارث ابن خالد: إنى قد بقى من طوافى شىء لم آته فكف عن إقامة الصلاة حتى أستوفى أداء المناسك ، فأمر الحارث المؤذن فكف عن إقامة الصلاة حتى فرغت من طوافها فضج الناس وسائر الحجيج .
وبلغ الخبر عبد الملك فعزل الحارث من ولاية مكة .

(١٣)
حكاية
هلال بن الأسعر

هو رجل من بنى مازن كان شجاعا شديد البأس والبطش عظيم الخلق أكولا ، عاش أيام بنى أمية .

وكان أهل المدينة يستأجرونه فيحمل بضائعهم على إبله إلى أطراف البلاد فيحمى القافلة بسيفه وشجاعته .

فقدم المدينة مرة ، وكان الوالى رجلا من بنى أمية ، فجعل يضع أحمال التجار عن إبله .

فحضر إليه رجل من قبل الوالى وأمره أن يذهب إلى الأمير ، فقال له : وماذا أصنع بإبلى وأحمالى وأموال الناس التى بيدى؟ فقال له : لا بأس عليك وعلى إبلك وأحمالك ، فسار معه إلى الأمير فسلم عليه ، وقال له : جعلت فداك ما يفعل الله بإبلى وأمانتى ؟ فقال له : نحن ضامنون لإبلك وأمانتك حتى نؤديها إليك ، فقال : فما حاجة الأمير إلى جعلنى الله فداك ؟

وكان إلى جانب الأمير رجل أصفر اللون لم ير الناس بشراً أشد خلقاً ولا أعظم عنقا منه ، وقد فرع الناس بطول قامته وعرضه .

فقال الأمير لهلال : إن هذا الرجل لم يدع بالمدينة عبداً يصارع إلا صرعه ، وقد بلغنى عنك ماسرنى من شدة البأس وقوة البدن فأردت أن يصرع الله على يديك هذا الرجل .

فقال هلال: جعلني الله فداءك. إني قدمت الساعة من سفر بعيد، وقد بلغ التعب مني والجوع مبلغا عظيما، فإن رأى الأمير أن يدعني اليوم حتى أضع الأحمال عن إبلي وأؤدي للناس أمانتي، وأريح يومي هذا، وأجيئه غداً إن شاء الله فليفعل.

فقال الأمير لأعوانه: اذهبوا معه فأعينوه على وضع الأحمال عن إبله وأداء أمانته للناس ثم انطلقوا به إلى مطبخي فأشبعوه ففعلوا جميع ما أمرهم به.

فلما كان من الغد حضر هلال وعليه جبة صوف بغير إزار وقد شد وسطه بعمامته، فسلم على الوالي فرد عليه السلام، فأشار على الرجل هلم! فقال الرجل: ألبسوه مئزراً فأمر الأمير بملحفة، فحملوا لهلال ملحفة نظيفة فشد بها حقويه وخلع الجبة

وجعل الرجل يدور حول هلال يريد ختله، وقد بهت هلال وما كان يدري ما هو صانع به، ودنا الرجل من هلال ودفع ظفره في جبهته فشجه وأوجعه، فجعل هلا يتأمل الرجل فما رأى في جسده شيئا أصغر من رأسه، فجعل إبهامه في صدغه وأصابعه الأخرى في أصل أذنه الأخرى، ثم غمزه غمزة شديدة، فصاح الرجل قتلتني قتلتني، فصاح به الأمير: أن أغمس رأسه في التراب فغمسها هلال في تراب المجلس ووقع الرجل شبه مغشى عليه.

فضحك الأمير وأمر لهلال بجائزة وصلة وكسوة.

(١٤)

حكاية

عبيد الله بن قيس الرقيات

شاعر قرشى لقبوه بالرقيات لأنه شبب بنسوة ثلاث كل واحدة منهن اسمها رقية .

وكان هواه مع عبد الله بن الزبير فخرج مع أخيه مصعب ابن الزبير لقتال عبد الله بن مروان ، ووقع قتال عنيف بين جيشى عبد الملك ومصعب ، وتخلف أنصار مصعب عنه حتى حضر الموقعة فى قلة من الناس وقاتل حتى قتل .

وتتبع عبد الملك أنصار مصعب ، وأباح دم عبيد الله بن قيس فدخل عبيد الله الكوفة مستخفيا ودخل دارا كان بابها مفتوحاً فقابلته ربة الدار وبناتها وأسكنته جناحاً من دارها بعد أن جهزته بالفرش والطعام والشراب ، فلبث عندها أكثر من حول ، فكانت تقوم بما يصلح شأنه وتزوره كل صباح ومساء ، ولا تسأله من هو ولا هو يسألها من هى ، حتى سمع نداء الناس فى الطرقات باسمه وسمع الوعيد له والجزاء الحسن لمن يرشد عنه .

فلما فترت حدة البحث عنه فاتح ربة المنزل برغبته في الشخوص إلى قومه ، فقالت له : نأتيك إن شاء الله بما تحتاج إليه .

فلما أمسى الليل صعدت إليه ربة البيت وقالت : إن شئت نزلت فقد أعددت لك راحلتين وعبداً يخدمك ، فركب وركب العبد معه حتى بلغ مكة فدق باب منزله وقال : أنا عبد الله بن قيس فولول أهل بيته وبكوا ، فدخل إليهم ولبث فيهم حتى السحر ، وخرج مع العبد حتى قدم المدينة ، وطرق عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فرحب به ، وقد علم بخبره وكان ابن جعفر يصله دائما ويقضي ديونه ، وسافر معه إلى دمشق وقابل عبد الملك بن مروان وطلب له الصفح والغفران ، وقال لعبد الملك : أليس ابن قيس هو القائل فيكم :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

فأمنه عبد الملك ولكنه حرمه من عطائه ، وكان عطاؤه ألفين كل عام ، فعوضه عبد الله ما فاته من العطاء من ماله وزاده فيه ، فقال فيه ابن قيس :

إذا زرت عبد الله نفسي فداؤه رجعت بفضل من نداه ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظاً ولم يك عني في المغيب بغافل

وشاع بين الناس بيتان قالهما عبيد الله بن قيس الرقيات في بني أمية وغنى بهما الملهون في المحافل وهما :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

وتناقل الناس قول عبيد الله بن قيس فى رقية إحدى الرقيات الثلاث وهو :

رقى بعيشكم لا تهجرينا ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غد إن شئت إنا نحب وإن مطلت الواعدينا
فإما تنجزى عدتى وإما نعيش بما نؤمل منك حينا

(١٥)

حكاية

جميلة

هى مولاة الأنصار كان منزلها فى المدينــة بضاحية السنخ وهى الضاحية التى كان ينزلها أبو بكر الصديق ، وكانت سيدة من غنى ووقع على العود ، يجتمع بمنزلها كل أهل الفن ويزورها علية الناس يستمعون إلى غنائها، وكانت قد أقسمت ألا تغنى فى دار أحد إلا فى بيتها .

أقبل عليها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وكان أول يوم يزورها فاشتد السرور بجميلة ، وقامت تستقبله ومعها الجم الغفير من الناس من زوارها فتلقته وقبلت رجليه ويديه . وجلس فى صدر المجلس وتحلق أصحابه حوله .

فقالت له: ياسيدى وسيد آبائى وموالى كيف نشطت إلى أن تنقل قدميك إلى أمتك ؟ فقال: ياجميلة قد علمت ما آليت على نفسك ألا تغنى أحداً إلا فى منزلك وأحببت الاستماع ، فقالت: جعلت فداك فأنا أصير إليك وأكفـّر فقال: لا أكلفك ذلك .

فقالت لخادمتها الكبرى : هذا يوم له ما بعده فلا تحجبي عنا أحداً

فيه ، فغصت الدار بالناس وتعالى النهار واشتد الحر واستسقى الناس فدعت لهم بالسويق فشربوا ، وقام على رءوسهم الجوارى بالمناديل والمراوح، وأمرت جواريها يروحن عن الناس، وغنت بين يدى عبد الله ابن جعفر، والجوارى يوقعن على الأعواد ويضربن بالمعازف، وقامت وعليها برنس طويل وقام المغنون جميعاً وهم ابن سريج ومعبد والغريض وابن عائشة ومالك وبأيديهم الأعواد فضربوا على توقيع جميلة وغنوا جميعاً فى صوت واحد :

يمشين مشى قطا البطاح تأودا ... قب البطون رواجح الأكفال
فيهن آنسـة الحديث حيية ... ليست بفاحشـة ولا متفال
وتكون ريقتهـا إذا نبهتها ... كالمسك فوق سلافة الجريال

فنظر عبد الله بن جعفر إلى ذلك الحسن البارع والهيئة الجميلة فأعجبه ووقع من نفسه وقال ياجميلة: لقد أوتيت خيراً كثيراً، ما أحسن ما صنعت! فقالت : ياسيدى إن الجميل للجميل يصلح، ولك هيأت هـذا المجلس ، ثم جلست تغنى لعبد الله بن جعفر خاصة شعرا قاله حذافة ابن غانم يمدح به عبد المطلب جد عبد الله بن جعفر وغنى معها جواريها .

بنى شيبة الحمد الذى كان وجهه ... يضىء ظلام الليل كالقمر البدر
لساقى الحجيج ثم للخير هاشم ... وعبد مناف ذلك السيد الغمر
أبوكم قصى كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبـائل من فهر

(١٦)

حكاية

الكميت الشاعر الأسدى

شاعر مقدم عالم بلغات العرب خبير بأيامها ، من شعراء مضر وألسنتها، والمتعصبين على قحطان المقارعين لشعرائهم بالمثالب والأيام ، المفاخرين بها ، عاش فى دولة بنى أمية ومات قبيل الدولة العباسية ، وكان معروفاً بالتشيع لبنى هاشم مشهوراً بذلك ، وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره .

ولم تزل عصبيته للعدنانية ومهاجاته شعراء اليمن متصلة، والمناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته وبعد وفاته .

وكانت قبائل العرب لذلك العهد فريقين : قحطانية ، وهم قبائل اليمن، ومضرية ، وهم قبائل الحجاز ، ولكل فريق شعراؤهم يفاخرون الفريق الآخر .

ومع أن الكميت متشيع لأهل البيت من بنى هاشم وله القصائد البليغة فى رثاء الحسين وزيد بن على ، ومدح بنى هاشم مما أسخط عليه-

منافسيهم من الأمويين، غير أن قصائده قد خلقت له من صميم الأمويين أصدقاء وقفوا يسندونه ضد الخلفاء من بني أمية .

إن المؤرخين قد ذكروا تلك القصيدة التي أنشأها الكميت يهجو فيها اليمن ، فثارت لها ثائرة الغضب في صدور ولاة الأمويين الذين من القبائل اليمنية وعلى رأسهم خالدبن عبد الله القسري الذي كان والياً على الكوفة فعمل على الإيقاع بالكميت ، فكتب بأخباره إلى الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي ، وشنع عليه بقصائده الهاشميات التي يمدح فيها بني هاشم ويهجو الأمويين .

فلما قرأها هشام أكبرها وعظمت عليه واستنكرها ، وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت . فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره فأخذ وحبس بالسجن .

وكان أبان بن الوليد وهو من صميم الأمويين عاملا على مدينة واسط ، وكان صديقاً للكميت . جمعتهما رابطة التعصب للعدنانية ضد القحطانية ، فبعث إلى الكميت غلاماً من عبيده على بغل : وقال له: أنت حر إن أدركت الكميت، وحمله رسالة كتب فيها أنه علم بأن هشاماً لابد قاتله .

وأشار عليه باستدعاء زوجته يعني زوجة الكميت لتزوره في السجن ، وعليه هو أن يتنقب بنقابها ويلبس ثيابها ويفر من السجن قبل أن ينكلوا به .

فأرسل الكميت إلى فتيان من بنى عمه فأخبرهم الخبر وشاورهم فيه فسددوا رأيه، فبعث إلى زوجته فقص عليها القصة، وقال لها: يابنة العم، إن الوالى لايقدم على أذيتك ولا يسلمك قومك، ولو كنت أخشى شراً ينالك من الوالى لما عرضتك له.

فقبلت زوجته وألبسته ثيابها وإزارها وخمرته وقالت له: أقبل وأدبر ففعل، فقالت: اخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها.

فرأى بباب السجن جماعة من بنى أسد وهى قبيلته، وفيهم سيد من سادات قومه يدعى أبو الوضاح فسار معه حتى أدخله منزله.

ولما طال على السجان الأمر نادى الكميت فلم يجبه فدخل ليعرف خبره، فصاحت به زوجة الكميت وقالت: وراءك لا أم لك! فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب والى الكوفة خالدبن عبد الله القسرى فأخبره الخبر، فأحضر الوالى زوجة الكميت واسمها حُبي، وكانت تتشيع كزوجها، وقال لها: ياعدوة الله احتلت على أمير المؤمنين، وأخرجت عدوه، لأمثلن بك ولأصنعن ولأفعلن.

فاجتمعت عليه بنو أسد وقالوا: ما سبيلك على امرأة منا خدعها زوجها؟ فخافهم فخلى سبيلها.

وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلا فى جماعة من بنى أسد على خوف ووجل.

وكان عالما بالنجوم يهتدى بها فى سفره فاستيقظ بالليل يصلى

وأيقظ من معه، ورأى بعض من معه شبحا فى الظلام فاضطرب فنظر الـكميت إلى الشبح وقال: هذا ذئب قد جاء يستطعمكم، فجاء الذئب فربض ناحية منهم فأطعموه يد شاة فتعرقها ، ثم مدوا له إناء به ماء فشربه منه ، فلما ارتحلوا جعل الذئب يعوى ، فقال الـكميت : إنى لأعرف مايريد ، هو يعلمنا أننا قد أخطأنا الطريق ، ثم صاح تيامنوا يافتيان. فلما تيامنوا سكن عواء الذئب ، وساروا فى ذلك الدرب حتى بلغوا الشام .

وكانت قبيلة بنى أسد لها منازل فى بلاد الشام ، وكذلك بنو تميم فتوارى فيهم الـكميت .

وأرسل إلى أشراف قريش ، وكان سيدهم عنبسة بن سعيد ابن العاص ، فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض ، وأتوا عنبسة فقالوا : يا أبا خالد هذه مكرمة قد أتاك الله بها ، هذا الـكميت بن زيد لسان مضر ، وكان أمير المؤمنين كتب فى قتله فنجا

فقال عنبسة : مروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام .

فمضى الـكميت فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى عنبسة إلى مسلمة ابن هشام فقال له يا أبا شاكر ! مكرمة أتيتك بها تبلغ الثريا إن قمت بها . وأخبره الخبر ، وقال: إن الـكميت قد مدحكم عامة وأنت خاصة بما لم يسمع بمثله ، فقال مسلمة : على خلاصه . فدخل على أبيه هشام ابن عبد الملك وهو عند أمه فى غير وقت دخوله ، فقال له هشام :

أجئت لحاجة ؟ قال : نعم . قال: هى مقضية إلا أن يكون الكميت فقال : ما أحب أن تستثنى على فى حاجتى ، فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت ، فقال هشام : قد قضيتها ، فقال : هى الكميت يا أمير المؤمنين وهو آمن بأمان الله عز وجل، وأتانى وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولا لم يقل مثله .

فقال : قد أمنته وأجزت أمانك له فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا .

فعقد له مجلساً حافلا فتكلم بخطبة ارتجلها ماسمع بمثلها .

وجاء الكميت آمنا إلى منزله فحشدت له المضرية الهدايا ، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم . وكتب إلى خالد والى الكوفة بأمانه وأمان أهل بيته وجمعت له بنو أمية بينها مالا كثيراً .

(١٧)

حكاية

إخوان الصفا

كان فتيان مجتمعون فى نظام واحد كلهم ابن نعمة فذكر ذاكر منهم فقال :

كنا اكترينا داراً شارعة على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس ، وكنا نفلس أحياناً ونوسر أحياناً على مقدار ما يمكن الواحد من أهله، ولا ننكر أن تقع مؤنتنا على واحد منا إذا أمكنه، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول، فإذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه ودعونا الملهين والملهيات .

وكان جلوسنا فى أسفل الدار فإذا عدمنا الطرب جلسنا فى غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس .

وإنا لكذلك يوما إذا بفتى يستأذن علينا فقلنا له : اصعد ، فإذا رجل نظيف حلو الوجه سري الهيئة ينبىء رواؤه أنه من أبناء النعم فأقبل علينا وقال :

إنى سمعت مجتمعكم وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم حتى كأنكم

أدرجتم فى قالب واحـــد ، فأحببت أن أكون واحدا منكم فلا تحتشموا عنى .

وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت وقد كان قال لغلام له : أول ما يأذنون لى أن أكون كأحدهم هات ما عندك، فغاب الغلام عنا غير كثير، ثم أتانا بسلة خيزران فيها طعام المطبخ من جدى ودجاج ورقاق وشنان (ماء بارد) ومحلب (عسل) وأخلة (ما يتخلل به) فأصبنا من ذلك، ثم أفضنا فى شرابنا ، وانبسط الرجل فإذا أحلى خلق الله إذا حدث ، وأحسنهم استماعا إذا حُدث ، وأمسكهم عن ملاحاة إذا خولف . ثم أفضنا منه إلى أكرم مخالقة وأجمل مساعدة ، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشىء الذى نعلم أنه يكرهه ، فيظهر أنه لا يحب غيره ، ويرى ذلك فى إشراق وجهه ، فكنا نغنى به عن حسن الغناء ، ونتدارس أخباره وآدابه ، فشغلنا ذلك عن تعرف اسمه ونسبه، فلم يكن منا إلا تعرف كنيته فإنا سألناه عنها فقال : أبو الفضل .

وقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس: ألا أخبركم بم عرفتكم؟ قلنا: إنا لنحب ذلك قال : أحببت جارية فى جواركم فكنت أجلس لها فى الطريق ألتمس اجتيازها فأراها ، حتى أخلقنى الجلوس على الطريق ورأيت غرفتكم هذه فسألت عن خبرها فخبرت عن ائتلافكم وتمالئكم ومساعدة بعضكم بعضاً ، فكان الدخول فيما أنتم فيه أسر عندى من الجارية .

فسألناه عنها فخبرنا فقلنا له: نحن نظفرك بها، فقال: يا إخوانى، إنى والله على ما ترون منى من شدة الشغف والكلف بها ما قدرت فيها حراماً قط، ولا تقدرها إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله على بثروة فأشتريها.

فأقام معنا شهرين ونحن على غاية الاغتباط بقربه والسرور بصحبته إلى أن إختلس منا، فنالنا بفراقه ثكل ممض ولوعة مؤلمة، ولم نعرف له منزلا نلتمسه فيه، فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به، فغاب عنا زهاء عشرين يوما، فبينما نحن نجتاز يوماً من الرصافة إذا هو قد طلع فى موكب نبيل وزى جليل، فلما بصر بنا انحط عن دابته وانحط غلمانه ثم قال: والله يا إخوانى ما هنأ لى عيش بعدكم، ولست أميط لكم عن خبرى حتى آتى المنزل، ولكن ميلوا بنا إلى المنزل فملنا معه فقال: أعرفكم أولا بنفسى: أنا العباس بن الأحنف، فتضاعف سرورنا به فهو من ظرفاء الشعراء وكرام أهل بغداد، ولبثنا عامة يومنا ضيوفا عليه.

(١٨)

حكاية

ديك الجن

واسمه عبد السلام، كان من شعراء الدولة العباسية يقيم بمدينة حمص من الشام .

وهو شاعر مجيد أحب جارية نصرانية من أهل حمص، وتمادى به الحب فعرض عليها الإسلام فأسلمت فتزوجها، وكان اسمها ورد فحسده عليها ابن عم له فأشاع فى الحى أن تلك الجارية تهوى غلاما، وكان زوجها عبد السلام قد سافر ليزور أحد الأمراء ويمدحه، فلما عاد دس إليه ذلك الخبر من جماعة رصدهم ابن عمه ليكيدوا له، فأراد أن يمتحن زوجته وكانت لا علم لها بما دبروه، فلم يتمالك غضبه وسل سيفه فقتلها، ثم لاحت له الحقيقة بأنها قتلت ظلما فبكاها أحر بكاء وقال يرثيها :

يا طلعة طلع الحمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتى من شفتيها
قد بات سيفى فى مجال وشاحها ... ومدامعى تجرى على خديها
فوحق نعليها وما وطىء الثرى ... شىء أعز على من نعليها
ما كان قتليها لأنى لم أكن ... أبكى إذا سقط الذباب عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها ... وأنفت من نظر الحسود إليها

(١٩)

حكاية

حدث أحد رجال بنى أمية وهو عمرو بن معاوية فقال : لقد عرف سليمان بن على العباسى بالعفو والرحمة فقلت : أقصده لعله يحقن دمى ، فدخلت عليه، وما كنت رأيته ولا رآنى من قبل فقلت له :

أصلح الله الأمير لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك ، فإما قتلتنى غانما وإما رددتنى سالما .

فقال :ومن أنت فأعرفك؟فانتسبت إليه فقال ، مرحباً بك ، اقعد فتكلم آمناً غانما ، ثم أقبل على فقال :

ما حاجتك يا ابن أخى ؟ فقلت : إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خفن لخوفنا ، ومن خاف خيف عليه .

فوالله ما أجابنى إلا بدموعه على خديه ثم قال :

يا ابن أخى يحقن الله دمك، ويحفظك فى حرمك، ويوفر عليك مالك، ووالله لو أمكننى ذلك فى جميع قومك لفعلت، فكن متوارياً كظاهر، وآمناً كخائف، ولتأتنى رقاعك . فكنت والله أكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه ..

(٢٠)
حكاية

حدث إبراهيم الموصلى فقال :

زرت مكة فى إحدى السنين وبينا أنا أجول فى سككها إذا أنا بجارية سوداء قائمة ساهية باكية ، فأنكرت حالها وأدمنت النظر إليها فبكت وقالت :

عمــــرو علام تجنبتـــــنى أخذت فؤادى فعـــــذبتنى
فلو كنت ياعمـــــرو خبرتنى أخذت حذارى فما نلتنى

فقلت لها: ياهذه من عمرو؟ قالت، زوجى. قلت: وما شأنه؟ قالت: أخبرنى أنه يهوانى وما زال يطلبنى حتى تزوجته فلبث معى قليلا ، ثم مضى إلى جدة وتركنى فقلت لها: صفيه لى ، قالت : أحسن من رأيت سمرة وأحلاهم حلاوة وقدا . قال: فركبت رواحلى مع غلمانى وصرت إلى جدة فوقفت فى موضع المرفأ أتبصر من يحمل من السفن ، وأمرت من ينادى ياعمرو ياعمرو ، وإذا أنا به خارج من سفينة على عنقه طعام فعرفته بما وصفته به الجارية فقلت أمامه :

عمرو عـــــلام تجنبتنى أخذت فؤادى وعذبتنى

فقال: هيه، أرأيتها وسمعت منها؟ فقلت : نعم، فأطرق هنيهة يبكى

ثم اندفع فغنى ما غنته الجارية فـكان أملح غناء سمعته، ورده على حتى أخذته منه، وإذا هو أحسن الناس غناء . فقلت له : ألا ترجع إليها ؟ فقال: طلب المعاش يمنعنى، فقلت: كم يكفيك معها فى كل سنة ؟ فقال : ثلثمائة درهم، فدعوته فأعطيته ثلاثة آلاف درهم، وقلت : هذا يكفيكما لعشر سنين على أن تقيم معها فلا تطلب المعاش إلا حيث هى مقيمة معك ، ثم حملته إلى مكة وجمعت بينهما .

---

(٢١)

حكاية

دب المرض فى رجل عروة بن الزبير وهو من أئمة التابعين فقطعها ، ثم قدم المدينة ونزل قصره بالعقيق ، ثم بلغه أن ولده محمدا قتل ، فقال :

اللهم أخذت عضوا وتركت أعضاء ، وأخذت ابنا وتركت أبناء، فإنك إن كنت أخذت لقد أبقيت ، وإن كنت ابتليت لقد عافيت .

وعاده عيسى بن طلحة فلما رأى رجله قال :

إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نحتاج إليه منك : رأيك وعلمك .

فقال عروة : ما عزانى أحد عن رجلى مثلك .

(٢٢)

حكاية

ربيعة الرقى الشاعر

كان ربيعة الرقى الشاعر من أحظى الشعراء عند الرشيد ، فمدح عم الرشيد وهو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان بخيلا فأثاب الشاعر بدينارين

فذمه ربيعة الرقى ذما قبيحاً تناقله الناس حتى بلغ مسامع الرشيد فاشتد غضبه على الشاعر وتوعده ، وأمر بإحضاره وانهال عليه بالتهديد بالقتل ، فأنكر أنه ذم عمه وانطلق ينشد قصيدة له فى مدح عمه سر منها الرشيد ، وقال : بماذا أثابك عليها ؟ فامتنع من الإجابة فتشدد عليه الرشيد : فقال أثابنى يا أمير المؤمنين بدينارين، وكان عم الرشيد حاضرا .

فالتفت إليه الرشيد مغضبا وقال: سوأة لك . أية حال قعدت بك عن إثابته ؟ الأموال ؟ فو الله لقد مولتك جهدى. أم انقطاع المادة عنك؟ فو الله ما انقطعت . أم أصلك فهو الأصيل لا يدانيه شىء . أم نفسك؟ فلا ذنب لى. بل نفسك فعلت ذلك بك حتى فضحت آباءك وأجدادك وفضحتنى ونفسك .

وظهر من الرشيد بعد ذلك جفاء كثير واطراح له .

ودخل العباس هذا يوما إلى الرشيد ومعه برقية فيها غالية فوضعها بين يديه ثم قال :

هذه يا أمير المؤمنين غالية صنعتها لك بيدى ، اختير عنبرها من سحر عمان ومسكها من مفاوز التبت وبانها من ثغر تهامة ، فالفضائل كلها مجموعة فيها ، والنعت يقصر عنها ، وكان بالمجلس ربيعة الرقى الشاعر فقال :

ما رأيت أعجب منك ومن صفتك لهذه الغالية عند من إليه كل موصوف يجلب ، وفى سوقه ينفق، وبه إليه يتقرب ، وماقدر غاليتك هذه أعزك الله حتى تبلغ فى وصفها ما بلغت ؟ أأجريت إليها نهرا أم حملت إليها وقرا ؟ إن تعظيمك هذا عند من تجبى إليه خزائن الأرض وأموالها من كل بلدة ، وتذل لهيبته جبابرة الملوك المطيعة والمخالفة ، وتتحفه بطرف بلدانها وبدائع ممالكها حتى كأنك قد فقت به ما عنده ، أو أبدعت له مالايعرفه ، أو خصصته بما لم يحوه ملكه .

أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا جعلت حظى من كل جائزة وفائدة توصلها إلى مدة سنتى هذه الغالية حتى أتلقاها بحقها

فقال الرشيد ادفعوها إليه . فدفعت إليه فأدخل يده فيها وأخرج ملئها فلطخ بها صدره وفخذيه ، وأخرج حفنتين فجعلهما تحت إبطيه

ثم قال : يا أمير المؤمنين غلامى يدخل إلى، فقال الرشيدى وهو يضحك أدخلوا غلامه .

فلما دخل الغلام دفع إليه البرنية وقال اذهب إلى جاريتى وقل لها طيبى بها بدنك، فأخذها الغلام ومضى وضحك الرشيد حتى ذهب الضحك وكاد العباس يموت غيظا ثم قام فانصرف .

---

(٢٣)

حكاية

كان أبو حازم قاضى الخليفة المعتمد العباسى فى مجلسه فتقدم منه رجل يطالب أباه بدين له عليه ، فأقر الأب بالدين ، وأراد الابن حبس الوالد بالدين ، فقال القاضى هل لأبيك مال ؟ فقال لا أعلمه . فقال فمذ كم داينته بهذا المال ؟ قال منذ كذا وكذا .

قال القاضى قد فرضت عليك نفقة لأبيك من وقت المداينة فحبس الابن وخلى الأب .

مع بشار بن برد

قالت امرأة لبشار بن برد ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك! فقال ليس من حسنه يهاب الأسد.

وسألته أخرى أى رجل أنت ... لو كنت أسود اللحية والرأس! فقال أما علمت أن بيض البزاة أثمن من سود الغربان؟ فقالت أما قولك فحسن فى السمع، ومن لك بأن يحسن شيبك فى العين كما حسن قولك فى السمع؟ فقال بشار ما أفحمنى قط غير هذه المرأة.

فهرس القصص

فهرس الحكايات

مطبعة نهضة مصر

